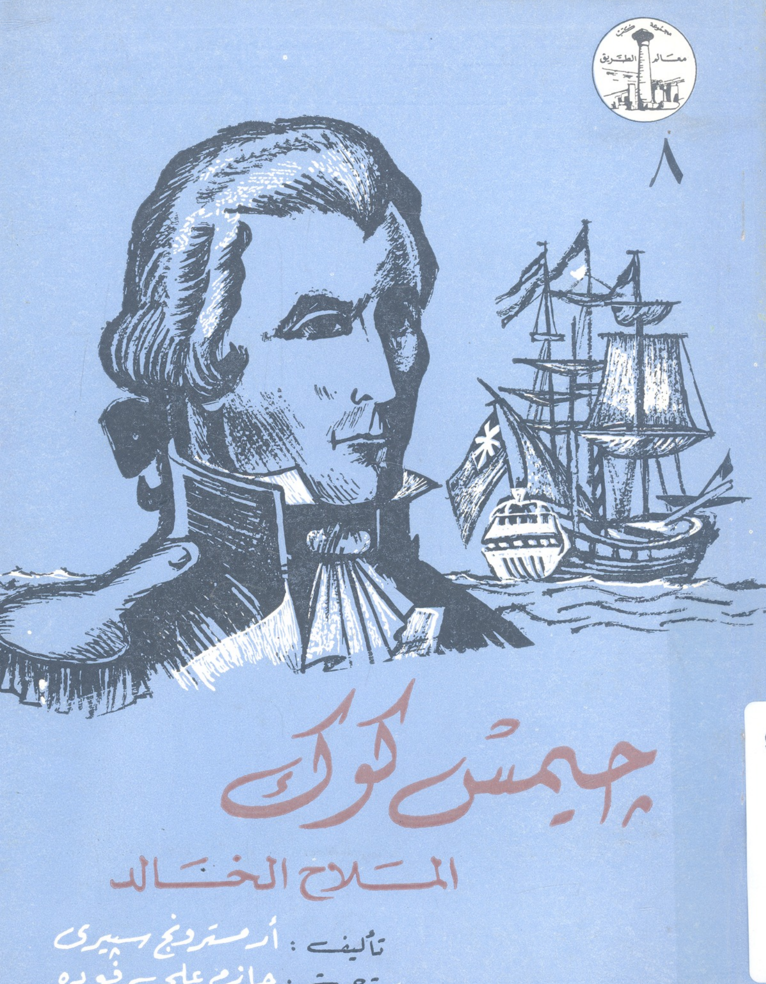


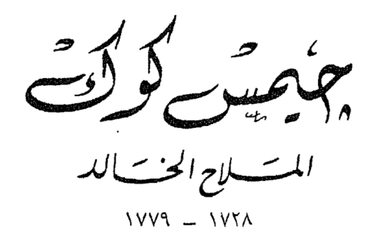
جيمس كوك

الملاح الخالد

تأليف : أرمسترونج سبيرى
ترجمة : حازم على فوده
مراجعة وتقديم : الدكتور زكى نجيب محمود

«معالم الطريق»
شخصيات وأحداث غيرت مجرى التاريخ
بإشراف الدكتور زكي نجيب محمود

(٨)



١٧٢٨ - ١٧٧٩

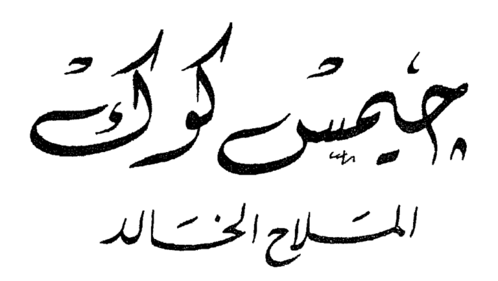
نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة ـ نيويورك

ابريل سنة ١٩٦٣



تأليف

أرمسترونج سبيري

ترجمة

حازم على فوده

مراجعة وتقديم

الدكتور زكي نجيب محمود



المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : ارمسترونج سبيرى

كان منذ نشأته يهوى الرسم والتصوير ، ولم يشك يوما فى أن هذا سيكون طريقه فى الحياة، فالتحق بمدرسة ييل للفنون، ولكن اضطراره للخدمة فى الأسطول فى الحرب العالمية الأولى قطع عليه دراسته.وبعد عقد الهدنة ذهب الى نيويورك ليواصل دراسته وانضم الى جماعة دارسى الفنون ، فازداد نشاطه وحبه لفنه ٠

وقد كان اهتمامه بالأقاليم النائية من العالم سببا فى قيامه برحلات طويلة ، فطوف فى خلال سنتين بأرجاء المحيط الهادى طولا وعرضـــا ، وعاش مع أناس من قبائل مختلفة ، وعمل مستشارا فى علم الأجيال مع بعثة علمية فى البحار الجنوبية ٠

له كتب كثيرة يتبين فيها ميله القوى الى الرحلات البحرية والاستكشافات منها : « جون بول جونز ، البحار المحارب » « كما ألف كتاب رحلات كريستوفر كولمبس » وكتاب « كل شىء عن ٠٠ المنطقتان المتجمدتان » وهما كتابان نشرتهما هذه المؤسسة ٠

وقد قام برسم الصور لكثير من الكتب ، من بينها كتاب ألفه باسم « القلب الشجاع » ونشرته أيضا هذه المؤسسة ، ونال عنه جائزة نيوبيرى سنة ١٩٤١ ، بوصفه أعظم كتاب فى الأدب الأمريكى للأطفال ظهر فى السنة التى نشر فيها ٠

المترجم : حازم على فوده

تخرج فى كلية الآداب (قسم اللغة الانجليزية) جامعة عين شمس سنة ١٩٥٤ وخريج معهد الألسن سنة ١٩٥٤ • حصل على دبلوم معهد التربية العالى بجامعة عين شمس سنة ١٩٥٥ • يعمل حاليا محررا بوكالة أنباء الشرق الأوسط، ترجم مسرحيتى « الوارثة » .و « الحمى الصفراء » وهما من المسرحيات التى نشرتها هذه المؤسسة •

المراجع وصاحب المقدمة : الدكتور زكى نجيب محمود

أستاذ المنطق ومناهج البحث بكلية الآداب بجامعة القاهرة • وهو حاصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن • مؤلف لعدد كبير من الكتب فى الفلسفة وفى النقد الأدبى • من أهم مؤلفاته فى الفلسفة « المنطق الوضعى » و « خرافة الميتافيزيقا » و « نحو فلسفة علمية » و « حياة الفكر فى العالم الجديد » الذى أصدرته هذه المؤسسة •

ومن مؤلفاته فى تاريخ الأدب ونقده « فنون الأدب » و « قصة الأدب فى العالم » • ترجم كتاب « المنطق » لجون ديوى ، وهو من الكتب التى أصدرتها المؤسسة كما أنه يشرف على سلسلة كتب « معالم الطريق » التى تنشرها هذه المؤسسة للتعريف بكبار الشخصيات والأحداث التى غيرت مجرى التاريخ •

نال جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٠ •

مصمم الغلاف : محمد سليمان التهامى

بكالوريوس فنون جميلة (قسم زخرفة) يعمل مصمم ديكور . صمم عدة أغلفة لكتب المؤسسة •

محتويات الكتاب

« معالم الطريق »

هــذه السلسلة
بقــلم
الدكتور زكى نجيب محمود

الرجال الأعلام ، والأحداث الجسام ، هى المعالم المضيئة ، التى يستهديها الرائى اذا ماكر ببصره راجعا ، ليرى كيف سارت الانسانية فى طريقها منذ فجرها حتى بلغت هذا الذى بلغته فى يومنا الراهن ، نعم ان تطور التاريخ قد كان مرهونا دائما بكد الجماهير وكدحها ، لكن طبائع الأمور تقتضى أن تتبلور تلك الجماهير الكادة الكادحة فى رجل ينطق بلسانها ويعبر عن وجدانها ، اذا ما كان الموقف موقف قول وتعبير ، ويضم فاعليتها ويجمع نشاطها تحت قيادته اذا ما كان الموقف موقف فاعلية ونشــاط ، وهكذا يرى الرائى ــ اذا أرســل البصر الى الطريق التى سارت عليها الانسانية ابان تاريخها الطويل ــ يرى الرائى عندئذ أن ثمة معالم تحدد مراحل السير ، وهى معالم ان تكن تشمخ برؤوسها فوق سطح الأشخاص والحوادث ، الا أنها نابعة من الطبيعة نفسها التى يتألف منها هؤلاء الأشخاص والحوادث ، فكأنما هاتيك الأعلام هى رؤوس الموج فوق سطح البحر ، تعلو على محيطها المائى ، لا لأنها مختلفة عن ذلك المحيط ، بل لأن ذلك المحيط المائى نفسه هو الذى دفعها الى أعلى لتكون له الظاهر المرئى لمن وقف عند الشاطىء يرسل البصر ٠

ولقد أردنا بهذه السلسلة من الكتب أن نقدم الى شبابنا القارىء صورا موجزة لكنها قوية ناصعة ، لما نتخيره له من جسام الأحداث وأعلام الرجال الذين نسجوا بخيوطهم نسيج الحيــاة كما نحياها اليوم : فمن الرجال من كشف قارة ، ومنهم من ارتاد محيطا مجهولا ،

ومن الرجال من حرر بلاده ، ومنهم من خلص البشرية كلها من وباء فاتك ، أو من أنتج للبشرية كلها أثرا خالدا من عـــلم أو من فن ، وكذلك قل فى كبار الأحداث التى كان الحدث الواحد منها بمثابة نقطة التحول فى مجرى التاريخ كله : فما ظنك بما قد صنعه رجال (أو نساء) من أمثال الاسكندر الأكبر ، وجنكيز خان ، وجان دارك ، وماركو بولو ، ومارتن لوثر ، وليوناردو دافينشى ، وغاريبالدى ، وكولمبس . ثم ما ظنك بأحداث من قبيل موقعة ووترلو ، وماجنا كارتا (أو العهد الأعظم) ، وكشف القطبين ، وصعود الهملايا ، والانتصار على جراثيم الحميات ؟ تلك كلها قمم تلخص جهود الانسان فى صنع حضارته وثقافته ٠

ان الانسان الواحـــد العظيم ، والحدث الواحد الجسيم ، قد لا يكون واحدا كالذى نعرفه فى سائر الآحاد عند العد والحساب ، لأنه قد يعـــدل الألف والألفين ، وقد يعدل الملايين بصـــفاته التى استجمعت صفات جنسه كله ، أو بآثاره التى يخلفها من بعده فاذا هى ثابتة الجذور لا تزول ولا تحول ، ولا وسيلة الى أن يعرف القارىء أوزان الناس والحوادث ، ومتى ترجح كفتها ومتى تشيل الا أن نهيىء له الفرصة فيلاقى هاتيك الحوادث وهؤلاء الناس لقاء مباشرا فى سلسلة الكتب التى نقدمها له : سلسلة « معالم الطريق » ٠

مقدمة

بقلم
الدكتور زكى نجيب محمود

ان قارىء هذا الكتاب ليقلب صفحاته وكأنما هو يقلب صفحات القدر ، حين ينشر القدر على الناس ما هو مكنون فى ضميره ، ينشره عليهم سطرا سطرا ، متمثلا فى حياة رجل واحد يختاره من بينهم لحكمة عنده ، حتى اذا ما فرغ من املاء ما يريد أن يمليه ، كان قد تكامل للناس ـ على يدى ذلك الرجل المختار ـ مرحلة من مراحل الحضارة فى شوطها الطويل ٠

واذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف نفسر أن غلاما نشأ فى أسرة تفلح الأرض ، لم يكن قد رأى البحر أبدا فى حياته ، ولا ذاق طراوة هوائه ولا ملح مياهه ، هو جيمس كوك ، يلح على أبيه المزارع الريفى أن يخلى بينه وبين السفر الى احدى قرى الصيد على شاطىء البحر لأن شيئا فى طبيعته يدفعه الى البحر دفعا ، ويعجب الوالد لشذوذ ولده هذا دون سائر اخوته ، لكنه لا يجد أمام الحاح ولده الصغير مناصا من القبول ، فيرحل الصبى ماشيا على قدميه حتى يصل الى قرية على البحر ،ويشتغل صبيا معاونا لبقال هناك عاما كاملا ، يذوق خلاله مرارة الحنظل على يدى ذلك الوحش الآدمى ، لكن الغلام يصبر على الأذى ويصابر ، لأن العيش فى جيرة البحر هو مراده ، توطئة للعيش على سطحه وبين موجه ٠

وما كاد القدر ينتهى من املاء ذلك السطر الأول من أسطر قصته حتى يبدأ فى املاء السطر الثانى ، حين يفر الصبى من مخدومه

الوحشى حتى يقع فى أقرب مدينة بحرية على صانع سفن . ولا ينتهى لقاؤهما الأول . الا والغلام واحد من زمرة المشتغلين عند ذلك الرجل ، لا بل ان الرجـــل ليحيطه بعطف أبوى فيسكنه داره كأنه ولد من أسرته ٠ وهناك يقيم الغلام عاما انتظارا لأول رحلة بحرية يقوم بها ، فماذا يفتح القدر أمامه فى تلك الدار ؟ انه يفتح أمامه الكتب والخرائط فى مكتبة الرجل الخاصة ، واذا بالدهشة تأخذ الفتى جيمس ، اذ يرى الخرائط والكتب تشير الى حقيقة عجيبة ؛ وهى أن مساحات شاسعة من البحر والبر لم تزل مستورة فى عالم المجهول ! ومتى كان ذلك ؟ فى القرن الثامن عشر !

وجاء أوان العمل ، بعد أن كان جيمس كوك قد انكب انكبابا على دراسة أمور الملاحة فى مكتبة مخدومه ، وبعد أن اطلع على الخرائط التى رسمها راسموها فاذا هم يملأونها بفجوات يضعون فيها صورا خيالية لعرائس البحر ووحـوشه ، وقد زعم زاعم منهم أن فى القطب الجنوبى قارة ممتدة الأطراف يسكنها خمســون مليــونا من البشر ! أفيجوز أن يتخبط الانسان هذا التخبط كله عن أرجاء الأرض التى يسكنها ؟ أقول ان أوان العمل قد جاء بعد أن كان جيمس كوك قد اشتعل رغبة فى كشف المجهول ، فهل تعجب لهذا الشاب الصغير فى أول رحلة بحرية له على مركب الفحم الذى كان أول مركب يعتلى فيه ظهر الموج ، يبدأ كتابة مذكرات يسجل فيها كل هام مما يقع عليه بصره : يسجل ما يتعرض له البحارة من أمراض ويعلل له ، ويرسم الشواطىء التى يبحرون بحذائها ، وهكذا ٠

فسرعان ما بات ــ على صغره ــ مرموقا بامتيازه بين الزملاء حتى لقد صمم رب العمل على أن يسند اليه قيادة هـــو أهل لها ، لكن الشاب كان قد أدار فى رأسه أمرا آخر ، وذلك هو أن يترك السفن التجارية ليلتحق بالأسطول البريطانى ، نعم انه يعلم أن مناصب

القيادة فى ذلك الأسطول موقوفة على أشراف القوم ، فأنى له بها وهو ابن ريفى فلاح ؟ وكذلك يعلم أن بحارة الأسطول ـ من غير المجندين له ـ كانوا يجمعون جميعا من الحانات والمواخير ، فيجيئون شذاذا أجلافا غلاظ القلوب، أفيكون واحدا من هؤلاء بعد أن فتح له الأسطول التجارى أبواب القيادة ؟ نعم ، ولم لا ؟ ان حرب السبعين على الأبواب، وسيكون للأسطول الحربى شأنه ، ومتى ضيع الله عمل العاملين ؟!

هاهنا كتب القدر فى حياة الرجل ـ بل فى حياة الانسانية ـ سطرا جديدا بل أسطرا ، لأن جيمس كوك ما كاد يلتحق بالأسطول الحربى بحارا ، حتى لمع وسطع ، أتصدق أن قائده لم يلبث أن ركن اليه هو فى رسم الخرائط للبقاع المجهولة التى يعتزم شن الحرب عليها ؟! لقد عبروا الأطلسى ابتغاء حرب فى كندا ، لكن ما حيلتهم ومنطقة القتال لا علم لهم بأنهارها ، وغاباتها ، ولا بشاطئها أين يصلح وأين لا يصلح ، فلينتظروا اذن فى موضع ما حتى يغامر جيمس كوك مع حفنة من رجال ليعود اليهم بما يريدون ، وتنجح الحرب ، ويخاطب القائد جيمس كوك فى زهو به : أين تعلمت يا جيمس بحيث حصلت ما لم يحصله أحد من ضباط البحرية جميعا فى شئون الملاحة وفى دقة رسم الخرائط للبحر والبر على السواء ؟ فيجيبه الرجل جواب الواثق بنفسه : علمت نفسى بنفسى يا سيدى ! فيستحثه القائد أن يعلن قدراته والا أغمضت عنه الأعين ، ويعود جيمس الى القول الذى لا يستطيعه الا الأفذاذ : اننى يا سيدى أحسن العمل ولا أحسن الكلام ! وعندئذ يتطوع القائد بلفت أنظار السلاح البحرى الى هـذا النابغة الذى جاءهم عرضا ، فلم تصبح المسألة مقصورة على رجل يرقى جزاء عمـله وكفى ، بل ان المسـألة الآن قد أصبحت مسألة الوطن كله الذى من واجبه أن يقدر أفذاذه العاملين .

على أن أول الغيث قطر ثم ينهمر ، فالى هنا كان الرجل تحت

امرة سواه ، فسواه هو الذى يضع الأهداف ثم يستعين فى تحقيقها بمهارة جيمس كوك ، فاذا ما سجل الرجل ملاحظات هامة عن الفلك، أو اذا رسم خرائط هامة لبقاع لم تكن قد رسمت من قبل ، فما ذاك الا شىء على هامش الهدف الأساسى من رحلته ؛ وكان من بين ما سجله فى باب المشاهدات العلمية تقريره عن كسوف للشمس كان قد حدث ابان رحلته ، ورفع التقرير الى الجمعية الملكية فى لندن ، حتى لقد تساءل أعضاء الجمعية العلماء : من ذا يكون الرجل ؟ ثم ما هو الا أن نشأ ظرف آخر ، وهو الاستعداد لملاحظة الكسوف الذى تنبأ به « هيلى » ـ وكان كوك قد عاد لتوه الى أرض الوطن ـ فالى من تتجه الأنظار اذا لم تتجه الى جيمس كوك ؟ فعين قائدا للبعثة العلمية ، ومن هنا بدأ القدر يخط صفحات لامعات ، فقد أخذ هـــذا الملاح يجوب المحيطات كاشفا عن أصقاع لم يكن للعالم المتحضر بها علم من قبل : جزر تاهيتى ، ونيوزيلنده ، واستراليا وغيرها ، ثم يعود الى بلده نجما ساطعا ، لكنه لم يكد يستقر على جنبه حتى خرج له من تحداه : اذا كنت قد جبت هـــذه الأصقاع كلها ، فكيف لم تعثر على القارة المزعومة فى القطب الجنوبى ؟ فتحرج الموقف وشد الرجل رحاله من جديد ليقطع دابر هذه الأسطورة ، فأعدت له سفينتان ، وراح يغامر بهما ـ وفى صحبته جماعة من العلماء فى مختلف الفروع ـ حتى عاد ومعه اليقين بأن وجود تلك القارة وهم من نسج الخيال .

لم يعد الملاح ملاحا وكفى ، بل انخرط فى ســـلك العلمـــاء الكاشفين ، فعينته الجمعية الملكية فى لندن عضوا ، واستدعاه الملك ليخلع عليه أمارات التكريم ، ثم لم يلبث أن طلب اليه القيام بمغامرة جديدة لكشف جديد : والكشف هذه المرة منصب على ممر يكون فى الشـــمال الغربى لو وجد لاختصر الطريق بين أوروبا وآســـيا اختصارا شديدا ، وغامر الرجل فى رحلة كانت هى آخر رحلاته ،

فبينما كان يقضى أشهر الشـــتاء فى جزر هاواى التى كشف عن وجودها ، لقى حتفه بضربة من الأهالى ٠

ألا انه لرجل واحد ، لكنه قد أضاف اضافة جليلة ، لولاها لكان من الجائز أن يمضى بعده زمن طويل ، وسكان الأرض لا يعلمون من أجزاء الأرض التى يسكنونها الا بعضا دون بعض ٠

وانا لنقدم الى الشباب القارىء هذه السيرة العظيمة ليروا فيها الى أى حد قد تبلغ عظمة الانســـان الطموح ـ شاكرين نيابة عنهم للأستاذ حازم على فوده قيامه بنقل الكتاب الى العربية ٠



الفصل الأول

أنشودة البحر

في صباح ذلك اليوم من شهر أغسطس سنة ١٧٤١ كانت الشمس الساطعة تبشر بحظ سعيد • فألقت بأشعتها الذهبية على السهول المتموجة في يوركشاير وعلى الأغنام السمان التي ترعى في الحقول • وكانت دافئة وكأنها نعيم السماء قد مس كتفي هذا الصبي وهو يسلك الطريق الخالي الذي يمتد الى غير نهاية بعيدا عن بلدة جريت آيتون •

فالحظ هذا الصبى جيدا أيها القارىء لأن جيمس كوك الصغير الذى يفوق طوله سنى عمره الثلاث عشرة ، والذى يحمل كل ما يملك فى حزمة تتأرجح على طرف عصا ، كان قد بدأ مغامرة كبيرة • وبالرغم من أنه سيسافر فى السنين القادمة الى أماكن على سطح الأرض لم يكن قد وصل اليها انسان من قبل فان هذه الرحلة الأولى التى ارتحلها فى شبابه كانت أعظم رحلاته شأنا ••• فقد رسمت طريق مستقبله •

وكانت ستيثز Staithes وهى قرية للسماكة يقصد اليها جيمس ، تبعد عن جريت آيتون بمسيرة يوم كامل • قطع منها الصبى فعلا عشرة أميال • وكان عليه أن يسرع كى يصل الى مقصده قبل أن يرخى الليل سدوله • وفى قرية ستيثز كان جيمس كوك ينوى أن يعمل لمدة ثلاث سنوات صبيا لبقال يدعى وليام سوندرسون •

وكان والد جيمس يسخر منه قائلا : « بقال ! تقف طوال اليوم وراء « البنك » لتبيع لفائف السكر وأكياس الدقيق ! أى حياة هذه لصبى يتقن حرث الأرض وحصاد الحبوب ؟ قل لى ••• هيه ؟ »

ورد الصبى : « ولكن ستيثز يا أبتاه تقع على البحر ! وأنا لم أر البحر فى حياتى ولا المركب » •

فرفع الرجل رأسه بعناد قائلا : « ولا أنا ، فشأنك شأنى فى هذا • كل هذه الضجة عن المراكب ! ان المحراث يكفينى • فلم لا يكفيك ؟ واخوتك جميعا قانعون بالبقاء معى ومساعدتى فى الحقول » •

ونظر الأخوة الى جيمس بشك كما تنظر أفراخ الدجاج الى البطة الصغيرة الوحيدة بينها وهى تنزل الى الماء • وسأل الأخ الأكبر:



بدأ جيمس كوك الصغير مغامرة كبيرة .

« وما الذى تتوقع أن تتعلمه عن المراكب فى محل بقال ؟ »

فرد الصبى : « سوف أكون منها على مرمى حجر ، ولا تخف لأنى سأتعلم » ٠

ونظرت أمه الى المجموعة بسرعة ثم قالت محتجة : « أتركوا الصبى يفعل ما يريد ٠ فمن يدرى ؟ ربما كان حب البحر فى طبيعته » ٠

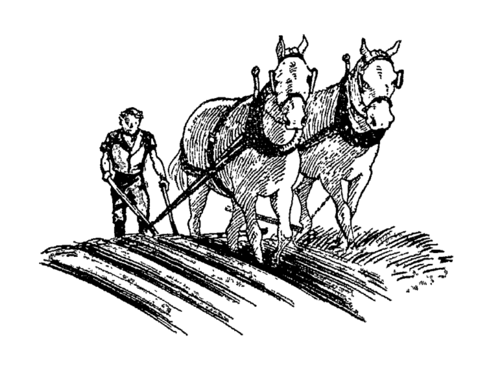
نعم قد يكون هذا أساس الموضوع ٠ لأن أحد فروع أسرة الأم ، وهى أسرة جريس كوك ـ كانوا ملاحين (على عكس أسرة زوجها المزارع) ٠

وكثيرا ما كانت الأم فى أمسيات الشتاء تروى لابنها الصغير قصصا لا تذكرها جيدا عن البلاد البعيدة التى تقع فى أقاصى المحيطات ٠ وكانت تتحدث عن الاسبانيين والاسكندينافيين وكثيرين غيرهم ، حتى عن أولئك الذين لم ينتموا الى أية دولة ، والذين كان الناس يتحدثون عنهم فى همس ـ وأعنى القراصنة ! وكان جيمس الصغير يرى كل هؤلاء فى مخيلته ، وبالرغم من أنه لم يسمع صوت البحر قط ، فان البحر كان قد بدأ يردد أنشودته الخالدة فى أذنه ، تماما كما يردد البحر طنينه فى محارة الأذن البيضاء الموضوعة على رف المدفأة ، وكان خاله جويليم قد أحضر تلك المحارة من أفريقيا ٠

وكان خاله يحذره قائلا : « اذا وضعت هذه المحارة على أذنك مرة واحدة وأصغيت اليها ، فلن ترضى عن حياتك على الأرض ثانية ٠ وأنا أقولها لك ان البحر ليسرى فى دم الانسان كأنه الأنغام العنيفة الرائعة وانها لأنغام يافتاى اذا ما ملكت عليك الزمام فما أقساها

عندئذ من مالكة فلا تنصت لأنشودتها الا اذا كنت على استعداد لأن تموت وصوتها يرن فى أذنيك ·

وأنصت جيمس · ربما كانت أمه على حق حين قالت ان « حب البحر فى طبيعته » وكل ما كان يعرفه هو أنه يريد أن يعيش مع أنشودة البحر الى الأبد ·



وبالرغم من أن أباه كان قد تذمر واحتج الا أنه كان يشعر فى قرارة نفسه أن ابنه هـذا الذى كان يختلف عن أبنائه الآخرين لن يقنع بحرث الأرض اذا كان ملح البحر يجرى فى عروقه كما كانت زرقته تملأ عينيه · ولهذا فقد اضطر والده على مضض أن يكتب اسـمه على الأوراق التى تسمح لجيمس بأن يصـبح صبيا لوليام سوندرسون البقال ·

وكان الطريق الخالى يمتد بين سياج شجر العضلة متجها نحو مستقبل حر جميل مجهول ٠ وكان الشىء الوحيد المؤكد هـــو أن جيمس كوك فى نهاية الطريق سيجد البحر ، واتسعت خطى الصبى تقطع أميالا من الطريق ٠

وتغبر حذاؤه ، واتسخت جواربه ، وبلل العرق قميصه،وربط حزام سرواليه ــ وهما من غزل أسرته ــ وثبت العكاز فوق كتفه ، وبدأ يصفر بصوت عال حتى لقد أطل طائر من سياج الشجر لينصت اليه ٠

ومع أن الصبى كان ينظر بشغف الى الأمام إلا أنه مرت بذهنه ذكرى ما قد خلف وراءه كأنها ظل ســـحابة عابرة ، فرأى الكوخ الحجرى ، الذى ولد فيه فى مارتون فى أكتوبر سنة ١٧٢٨ ، ورأى حقول جريت آيتون (القرية الصغيرة المجاورة) حيث عمل بجوار والده ٠ وتذكر العانس العجوز السيدة ووكر مدرسة القرية ، أنها هى التى علمته القــراءة ، وأولته اهتماما خاصــا فى الجغرافيــا والرياضيات : العلمين اللذين أتقنهما جيمس ، ثم خفق قلبه لحظة ، حين فكر فى اخوته الذين التفوا حوله صبيحة ذلك اليوم كى يودعوه ، وفى قبضة يد والده الغليظة الصامتة التى أضناها العمل ، وفى رقة والدته وهى تحتضنه وتهمس له « ليحفظك الله يا بنى ويعدك الى بيتك » ٠ ترى متى يراهم ثانية ويسمع أصواتهم ! لقد انكتم الصفير الجرىء فى حنجرة الصبى ، وجف فى حلقه الريق ٠

ولكن فى يوم كهذا ، وفى رحلة كهذه كان من المستحيل أن يظل جيمس مغتما لمدة طويلة ٠ كانت السحب تتسابق عبر سماء انجلترا وكأنها سفن شراعية بيضاء تساير الريح ، ومن وقت لآخر كان المزارعون الذين يعملون فى حقولهم يتوقفون ليناودا بالتحية ،

وكانت الكلاب تنبح محذرة • والأولاد يحملقون فى صمت • وأخرج الصــبى ربطة من جيبه بها خبز وجبن والتهمها ، ثم وقف بجوار جــدول صــغير كى يروى ظمأه ، وبدأ يفكر : أى نوع من الرجال سيكون مستخدمه الجديد وليام سوندرسون ؟ كان والد جيمس قد سمع عنه مصادفة ولكن أحدا فى جريت آيتون لم يعرفه • ولا شك أن الثلاث السنوات تعد فترة طويلة لا يسهل فيها العمل الا مع مستخدم طيب ! ترى هل سيكون الوقوف فى المحل وبيع الدقيق عملا سخيفا ، كما أصر على ذلك والده ؟ لم يستطع جيمس أن يجد اجابة عن كل هذه المسائل المحيرة ، فى حين كان يرقب الظلال تمتد مع مرور الوقت •

وبدأت ملامح السهل الموحش تتحول الى أرض أكثر صلابة ، وأكثر صخورا • وقلت القرى ، وتباعدت الأشــجار ، وتمايلت أغصانها الى الداخل ، وكأن ريحا خفيفة تدفعها ••• وبينما أشرفت الشمس على المغيب بدأ التعب يدب فى جسد الصبى لأول مرة ، ولكنه أسرع فى خطاه ، فقد كانت ساعات العمل الطويلة فى الحقل قد أصلبت عوده النحيل ، وأما الجوع فكان مسألة أخرى ، اذ بدا له وكأنه لم يأكل منذ ساعات طوال ؟ وتوقع جيمس أن مستخدمه الجديد لن يتركه لينام بمعدة خالية •

وشعر الصبى أن الريح قد تجددت فاستنشقها بشغف لأن والدته كانت قد أخبرته أن الانسان يستطيع أن يشم رائحة الهواء المالح على بعد أميال • نعم مافى ذلك شك !! لقد أصبحت للهواء نكهة غريبــة مختلفة ولم تكن فيها رائحة القش أو الغرين الخاملة المعهودة • انه هواء بارد عليل ملىء بالحياة ، جعل الدم يسرى فى عروقه •

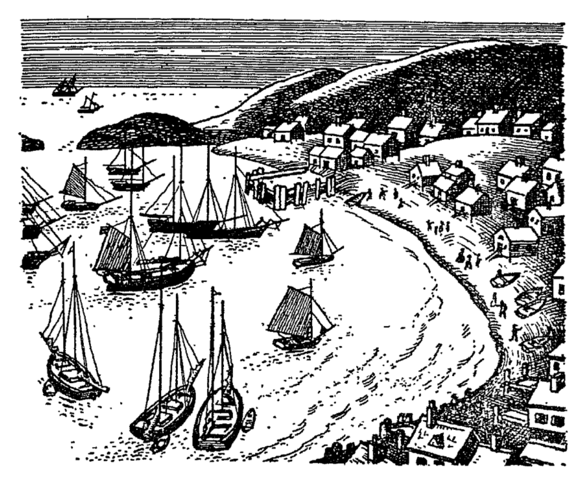
وفجأة سمع جيمس صوتا مروعا آتيا من بعيد ، لم يدرك كنهه ، ربما كان صوت بداية عاصفة ٠٠٠ ولكن سماء الغروب الصافية الهادئة لم تنذر بعاصفة ، وزاد الصوت المزمجر وهز مشاعر الصبى ، ثم أدرك جيمس كوك آخر الأمر ، أن ما سمعه لم يكن قصف الرعد ، بل كان صوت البحر الصاخب !!

وانطلقت صرخة من شفتيه وهرول فى خطاه وكأنه يكاد يجرى وهو يتسلق آخر تل صخرى أمامه ، ووقف على قمته فقابله الهواء المالح مندفعا يحمل اليه هدير البحر ٠ وفى أسفل ، وعلى بعد كبير ، رأى قرية « ستيثز » تحيط بها التلال الجرداء فى كل مكان ٠ ورأى شارعا واحدا مرصوفا يميل على طول الخليج محاطا بأكواخ حجرية متجاورة ، وكانت هناك مرافىء يضع فيها الصيادون أثقالهم من السمك ويعلقون فيها شباكهم لتجف ٠

ولكن البحر هو الذى استرعى انتباه الصبى وجذبه ٠ فالى الشمال على مرمى البصر كان البحر يتلألأ فى ضوء الشمس الغاربة حتى لقد ملك عليه مشاعره ، وكانت الأمواج تلتطم بالصخور فتتحول الى رذاذ ، وقد أخذت طيور النورس ذوات الظهور الرمادية تصيح وهى تحلق فى الهواء ٠ ووقف جيمس كوك ساكنا لا يتحرك ، وشعر وكأن كل عروق بدنه قد جذبتها يد خفية فراحت ترسل النغم ، كما ترسل حبال السفينة أنغامها حين تهب عليها ريح مفاجئة ، وشعر برغبة فى الصياح والغناء ، ولكن لسانه كان صامتا ، لقد كان كل شىء غريبا ولكنه شعر وكأنه يعرفه منذ أمد ٠

وفى المرفأ رأى أسطولا من قوارب الصيد راسيا فى سكون وبدأت الأنوار تسطع هنا ، وهناك ، ثم ظهرت أول نجمة تتلألأ فى خفوت ، وكان أمامه « مدق » متعرج ، متجه الى ستيثز فى أسفل التل وعلى بعد ميلين ، وأخذ الصبى نفسا عميقا ، ثم سار الى حيث يقوده هذا « المدق » ٠ ٠

وهكذا وصل جيمس كوك أخيرا الى البحر بعد أن كان حتى ذلك اليوم لا يبتعد عن بيته بأكثر من خمسة أميال ٠



الفصل الثانى

صبى البقال الصغير

حل الظلام فى الوقت الذى وصل فيـــه الصبى الى أطراف ستيثز ، وكان شارع القرية المرصوف خاليا ، ولم يكن هناك صوت غير هزيم الأمواج المكتوم الذى يحمله هواء الليل ، ومما أعطى المكان مظهرا مظلما موحشا أن كانت جميع نوافذ الأكواخ مغلقة ، فوقف الصبى فى حيرة فى أى اتجاه يسير ؟

وفى تلك اللحظة دار حول ركن الشارع شخص فى طريقه الى البحر ـ انه بحار وقف بغتة حتى لا يصطدم بجيمس ٠

وصاح الرجل : « على رسلك يا فتى ، ألا ترى أنه قد حان الرواح الى بيتك لتأوى سائر الليل ؟ »

فتلعثم الصبى قائلا : « آسف يا سيدى ٠ ولكنى غريب عن هذا المكان » ٠

ـ غريب ٠٠ آه ٠٠ وعن بيت من تبحث ؟

ـ بيت وليام سوندرسون ، البقال ٠

ففغر البحار فمه ، ونظر الى الصبى نظرة تعجب ، ثم قال : انظر أيها الصبى ٠٠٠ سر هكذا فى سمت الطريق مسافة مائتى متر ، ثم عرج يسارا تلق أمامك لافتة معلقة ، ذلك هو دكان وليام سوندرسون ٠

ـ شكرا لك يا سيدى ٠

فأجاب البحار : « لا داعى للشكر يا رفيقى ٠ انما قل لى ٠٠ ما هى الصلة التى بين ريفى مثلك وبين رجل مثل هذا ؟ »

وتلعثم الصبى قائلا : « ماذا تقصد يا سيدى ؟ »

فأجاب الرجل : « لا تنادنى بكلمة « سيدى » وكأننى وجيه من أصحاب المناصب عند الملك ، أما عن وليام سوندرسون ذاك ، فلابد أن أقول لك انه رجل عنيف وبخيل جدا ، فالكل يعرف عنه أنه مستعد أن يسلخ البرغوث ليأخذ جلده وشحمه !! »

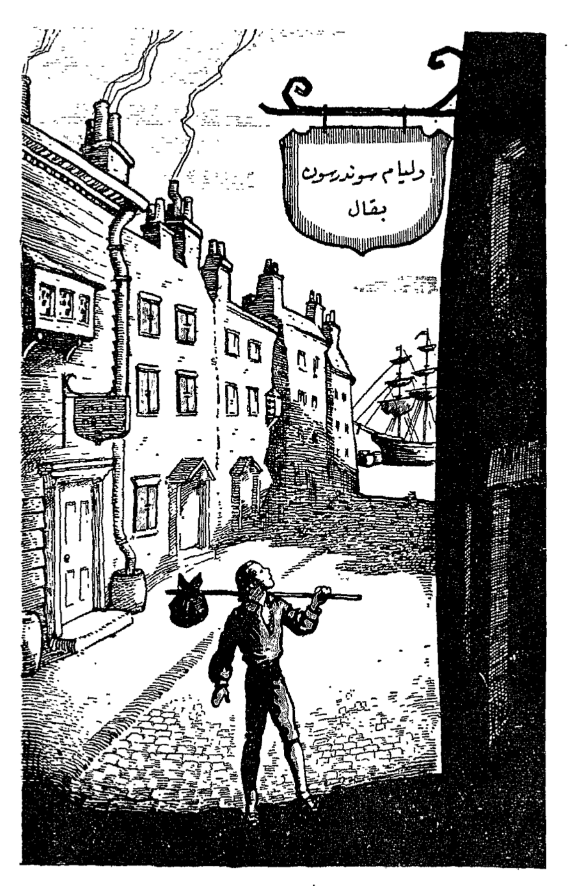
فبلع ريقه وقال : « لكنى سأعاونه صبيا له لفترة مداها ثلاث سنوات » ٠

ــ يا للبلاء صبى آخر ! هه ؟ حسنا • على أية حال ليس هذا من شأنى لكن تنبه دائما الى وجهة الريح يا رفيقى • انه يبدو عليك أنك صبى بائس ، ووليام سوندرسون هذا رجل صغير ومغرور ••• أراهنك جنيها للميم أنك تستطيع أن تعول نفسك • ربنا يحميك •

وعلى أثر هذا سار الغريب فى طريقه بمشية متأرجحة تاركا وراء صبيا يائســـا أحس فجأة بضيق حيلته • لأن ما قاله البحار ينطوى على تحذير ••• وتعجب جيمس : لماذا يطلب منه أن يعول نفسه ؟ أى رجل هذا الذى «يسلخ برغوثا من أجل جلده وشحمه !!» وماذا عنى البحار بقوله : « صبى آخر » • ولما سار الصبى فى طريقه شعر بتعب شديد فى ساقيه ، وبدا له بيته بعيدا بعيدا جدا ولكنه ما ان سار بضع خطوات حتى اكتشف لافتة تتأرجح مع الريح ، وسمع صوتها وكأنها تشكو من حديدها الصدىء • وقرأ عليها الكلمات التى تقرر مصيره : « وليام سوندرسون ــ بقال » •

وكان البيت نفسه مبنيا من الحجر المعتم ، وأنعم الصبى النظر فيه باحثا عن أى شىء يدل على الحياة ، فلم يجد دخانا يتصاعد من المدخنة ، ووجد نافذة سوداء ــ لاتزال بدون مصراع ــ مفتوحة وكأنها عين لا ترى ، وبدا الباب الثقيل كئيبا كريها • ومرت لحظة شعر فيها الصبى برغبة فى نفسه أن يولى الأدبار ويعود من حيث جاء ولكنـــه رفع رأسه فى تصميم وعزم ، وقرع الباب بشدة محدثا صوتا مزعجا، ثم تبع هذا سكون تام ، ووسط هذا السكون سمع جيمس دقات قلبه الخافتة •

وفتحت نافذة من النوافذ العليا ، أطل منها رجل يضع طاقية على رأسه ، ولكن ملامحه لم تكن واضحة فى الظلام ، وسأل الرجل بصوت أجش : « من هناك ، وماذا تريد ؟ » •



وما ان عاد بضع خطوات حتى اكتشف لافتة تتأرجح مع الريح ٠

وبدأ جيمس يجيب قائلا : « سيدى ··· » ·

فقاطعه الرجل : « ليس هذا وقتا تقرع فيه الباب ، فالمحل مغلق طوال الليل » ·

وحاول الصبى مرة ثانية أن يتكلم : « ولكنى ··· » ·

فصاح الرجل : « أغرب عن وجهى ! لو أن والدتك نسيت شراء كيس ملح فلست أنا مخطئا ، عد فى الصباح فى ساعة مناسبة » ·

وعلا صوت الصبى فى استياء : « ولكنى لم آت لشراء ملح » ·

« اذن فلو كنت سائلا ، فاذهب فى طريقك قبل أن أضربك بالعصا » ·

واجتاحت جيمس كوك نوبة غضب شديد ، لأن أحدا لم يخاطبه بهذه اللهجة فى حياته ، فاستقام فى وقفته ، ورفع رأسه واستعد لملاقاة أزمة شديدة ، ثم قال بصوت مرتفع :

« أنا جيمس كوك ، صبيك ، ولكنى يجب أن أقول بصراحة اننى كنت أتوقع مقابلة أكثر تهذيبا وذوقا ! » ·

وأسكت هذا الهجوم العدائى وليام سوندرسون لفترة وجيزة ثم استجمع قواه وهاجم الصبى مرة أخرى :

« صبيى الجديد ــ هه ؟ لقد أخذت مدة طويلة كى تصل الى هنا ــ بلسان وقح ــ قف حيث أنت حتى أفتح الباب » ·

ووقف جيمس الصغير فى مكانه وهو لا يزال حانقا على هـذا اللقاء ، وسرعان ما سمع وقع أقدام سريعة وخفيفة ، تتبعها صلصلة سلاسل فى حين دفع الرجل الرتاج الى الخلف ، فانفتح الباب ٠

وقال الصوت المشاكس وكأنه صادر من العدم : « ادخل ، ادخل لا تقف هناك كالأبله ٠ ان الريح عنيفة قاسية وليس لدينا وقود كاف » ٠

وخطا جيمس عتبة الباب بحذر ، وفى الحال أغلق الباب وراءه بعنف ، وانزلق الرتاج بسرعة فى مكانه وواجه الصبى مستخدمه الجديد ، انه لم يتخيل فى حياته انسانا أغرب من هذا الانسان ؛ لقد كان وليـــام سوندرسون رجـــلا ضئيل الجسم ، خفيف الحركة ، كالثعلب ٠ ومما زاد الشبه الكبير بينه وبين الثعلب ملامحه الحادة وشواربه الخشنة ٠ وبدت عيناه فى ضوء الشمعة التى كان يمسك بها فى يده متقاربتين براقتين خضراوين ، وأمسك فى يده الأخرى عصا وكأنها هراوة ٠ وعلى الرغم من أن الرجل كان فى الواقع أقصر بكثير من الصبى الذى كان يواجهه فانه كان هناك شىء فى هذه العيون الثعلبية والأيدى المخلبية جعلها تبدو خطيرة جدا ، فقبض جيمس كوك يديه لا شعوريا ، كما لو كان يستعد لمواجهة تهديد حقيقى ، واستاء الصبى جدا حين أنعم الرجل النظر اليه بعينيه الخضراوين ٠

ثم تمتم وليام سوندرسون : « هممmm صبيى الجديد ، آه يجب أن تعتدل فى وقفتك حين أتحدث يا صبيى والا فلن تشعر الا بهذه العصا تهوى عليك » ٠

وتقدم جيمس رغم أنه كان فى غاية الغضب ولكنه وجد أن مخاصمة مستخدمه فى بداية خدمته لن تجدى ٠

وقال : « معى خطاب لك يا سـيدى ، طلب منى والدى أن أعطيه لك فور وصولى » ٠

« هاته » ٠

وخطفت الأصابع الخفيفة الورقة المطوية من يد الصبى ورفع الرجل الشـمعة فوثب معها ظلاهما على الحائط ، ثم بدأ وليـام سوندرسون يقرأ الكلمات التى خطها والد جيمس بعد جهد :

سيدى المحترم :

يحمل هذا الخطاب ولدى جيمس ، وهو صبى متعلم مجتهد ، كما أنه يحمل معه موافقتى الكتابية على أن يعمل فى خدمتك ثلاث سنوات ، وانى أحملك تبعة رعايته ، وأذكرك بأن أيام الأحد من حق الكنيسة عليه ، وفى مقابل هذا سيخدمك جيمس باخلاص وصدق ٠

وانى دائما يا سيدى المحترم ،،،

جيمس كوك ـ الوالد

جعد وليـام سوندرسون الخطاب وألقى به بعيـدا وقال : « يا ولدى العزيز ٠ أعتقد أن ثقة والدك بك فى محلهـا » ٠ ثم استشهد ساخرا ببعض كلمات والده : « متعلم ومجتهد ! ها ها ! سنرى » ٠

فنطق جيمس : « سأبذل جهدى يا سيدى » ٠

وأجاب الآخر بوقاحة : « هذا ما يجب أن يكون ٠٠ تعال معى لأريك المكان الذى تنام فيه » ٠

ودار الرجل متجها نحو سلم ضيق يقود الى أعلى فى الظلام ، وخفق قلب جيمس وتأكد من أنه لن يتعشى ، ولكنه مع هذا تبع مستخدمه باخلاص ٠

وانعكس خيال وليام سوندرسون قبدا وهو يصعد السلالم وكأنه عنكبوت وحشى يصعد الى نسجه ، وشعر الصبى بالعجز وكأنه ذبابة تتخبط فى هذا النسيج ، وسيطر عليه الذعر لحظة ، وخفق قلبه وكأنه حمامة فى فخ ٠

وفى أعلى السلالم وجد بابا مغلقا ، ففتح الرجل الرتاج ودفع الشمعة فى يد جيمس ٠

ثم قال بسرعة : « سريرك فى غرفة السطح ، يجب عليك أن تستيقظ فى تمام الخامسة فتغلى العصيدة وتكنس المحل ٠٠ أتسمعنى يا صبيى ؟ »

فأجاب جيمس :

« نعم يا سيدى » ٠

فهز الرجل عصاه وقال : « تذكر أننى لن أطيق الكسل ، أنت هنا لتعمل ، وسوف تعمل ! »

وصعد جيمس ببطء سلما آخر حاد الانحدار ، وفى نهايته وجد دعامات الغرفة منخفضة فوق رأسه ٠ ووجد نافذة واحدة ذات زجاج مستدير بسطت عليها أجيال وأجيال من العناكب نسجها ، وانطلقت منها الفئران باحثة عن مأوى ، ومن مكان ما سمع الصبى صرخة خفاش ٠

وكانت توجد على الأرض مرتبة محشوة بالقش ، وهى فى الحقيقة ليست سوى حصيرة قبيحة المنظر حتى فى نظر صبى متعب مرهق . وخلع جيمس حذاءه ، وفك حزامه ، وأخرج لباس النوم من الحزمة التى معه ··· وارتداه ، وارتعش حين أحس أنه مبلل ، ان أباه فى نفس هذا الوقت هناك فى بيته يقرأ صفحة من الانجيل بصوت عال ، وأمه تغسل « صحون » العشاء ، وتحفظ الطعام المتبقى ·

وصمم الصبى على تحويل تفكيره الى ما هـــو آمن وأفضل فضغط بأســـنانه على شفته السفلى كى لا ترتعد ، ثم ركع بجوار المرتبة ، وحنى رأسه وصلى لله بكل عزيمته ، تماما كما تعود أن يفعل فى البيت :

« اللهم يا واسع الرحمات · اكبح لى جماح نفسى وأعنى على أداء عملى ، وبارك أحبائى ، ولين قلب أعدائى ، يا الهى ، آمين » .

وسمع الصبى صوت طقطقة الأمواج المستمرة بالمرافىء ، فى حين دوت الرياح مرعدة على الشاطىء ··· فأطفأ الشمعة ثم رقد بنفس مكتئبة ، ومعدة خالية ، لينام نوما قلقا متقطعا ·

وبعد أن مضت السنون وكبر جيمس كوك ظل يذكر هـــذا المنظر دائما أكثر من أى منظر آخر كلما طاف بذهنه ذكر طفولته ولطالما تساءل : لماذا علق بذهنه هذا المنظر بالذات ، بوضوح ، بينما مرت به أحداث أخرى أحدث عهدا تشوبها الكآبة · ثم فهم جيمس أن السبب هو أنه فى تلك الليلة التى وجد فيها فى غرفة سطح وليام سوندرسون المظلمة المهجورة أغلق باب الطفولة خلفه الى الأبد، وانفتح أمامه طريق الرجولة الطويل المحير ·

وتعلم جيمس كوك فى الأسابيع والأشهر التالية أن مستقبل الصبى تحت امرة سيد مثل وليام سوندرسون ليس باهرا ؛ ففى الخامسة صباحا كانت العصا تطرق باب الغرفة مصحوبة بصرخة : « انهض أيها الكسلان المخدر !! انهض !! »

كنس الدكان وتنظيفه ، ومسح السلالم ، وتناول الفطور فى السابعة ٠ هذا الفطور الذى قلما زاد عن شريحة خبز مدهونة بالعسل الأسود ، أو عصيدة خفيفة ٠ وطوال ساعات النهار كان على الصبى أن يخدم الزبائن فيكيل السكر والدقيق ويزن الجبن والرنجة ، ويذهب فى مهام لا معنى لها ، وبالرغم من أن جيمس كان يبذل قصارى جهده كى يقوم بكل هذه الواجبات العديدة على خير ما يستطيع الا أنه اكتشف بسرعة أنه لن يرضى مستخدمه أبدا ، وبدا له كأنما كل شىء مما كان يقوم به لم يكن صحيحا ٠ وكثيرا ما كانت العصا تهوى على كتفه بضربات مؤلمة مبرحة ٠

وكثيرا ما كان وليام سوندرسون يقول : « ان الصبى الذى يسرق الوقت الذى يتناول عنه أجرا ما هو الا لص ، تماما مثل الصبى الذى يسرق قرشا من جيب سيده » ٠

وأشرف الرجل بنفسه على ألا يجد صبيه وقتا يمكن أن يسرقه ، حتى لو كان جيمس يميل الى هذا ، فلم يسمح له الا بفترة راحة قصيرة يتمتع بها فى أيام الأحد ٠ وحينئذ بعد عودته من الكنيسة ، كان دائما يجلس مع الصيادين الذين لا يعرفون يوما للراحة ، وسرعان ما قبلوا الصبى النحيل بينهم واعتبروه واحدا منهم ، ذلك الصبى الثاقب النظر ، والمعتمد على نفسه ، المتشوق الى سماع أقاصيصهم عن البحار العميقة ٠٠٠ وكانت ذكريات هذه القصص عن البحار تعين الصبى على تحمل الأعمال الشاقة والاهانات المتكررة

طوال الأسبوع . فكان يعمل وكأنه فى غيبوبة ، يرى فى خياله شموس افريقية الحمراء ، وأشجار نخيل جزر الهند الخضراء ، وكان دائما يرى البحر ويسمع صوته ... وعاش جيمس فى عالم من نسج خياله ولكنه كان بالنسبة له أكثر واقعية من العالم الكئيب الذى يعمل فيه مع مستخدمه ، ومن ضربه واهاناته ، وحتى أحلامه التى كان يراها فى نومه كانت مليئة بالقـــارات المجهـــولة والجزر المرجانية التى لم تستكشف بعد وسط البحار المشمسة .

وفى صبيحة أحد أيام سبتمبر الجميلة ــ بعد مضى سنة من وصول جيمس كوك الى بيت وليام سوندرسون ــ لم يكنس الدكان ، ولم تطه العصيدة ... فثارت ثائرة وليام سوندرسون ، ودق باب غرفة السطح وصاح : « انزل هنا أيها التمثال المتسكع ! لابد وأن تعاقب بشدة على هذا !! انزل ! »

ولم يجب أحد ، لأن جيمس كوك كان قد هرب ، كما هرب من قبله جميع الصبية الذين عملوا فى خدمة نفس هذا السيد المستبد الجبار .



الفصل الثالث

نقطة التحوّل

وكان مرفأ هويتبى العريق يقع على ضفاف نهر اسك تحت سفح الجبال وعلى بعد حوالى تسعة أميال من ستيثز • وفى هذا الركن المحمى من ساحل يوركشاير توجـــد آثار للبريطانيين والرومانيين والسكسونيين والدنماركيين والنورمنديين • وكانت كنيسة سانت هيلدا تشرف على البـــلدة ، وفى ظلها وعلى طول الشوارع الضيقة تتصاعد بيوت الرعاة والتجار المبنية من الآجر « الطوب الأحمر » •

وفى تلك الأثنـــاء كان مرفأ هويتبى منتعشا ناجحا ، فهنا تبنى السفن وتجهز ، وهنا تبدأ رحلاتها الى نهاية العالم المعروف والى هنا

تعود محملة بالعاج والتوابل وعظام الحيتان ، وأخيرا هنـــا ترسو السفن ، وميول قلاعها تشير كالاصبع الى أى فتى يريد المغامرات .

وكان جيمس كوك واحدا من هؤلاء ؛ ففى صباح ذلك اليوم قبل الفجر عبر المروج العالية ومرق من السهول الواطئة تاركا وراءه ستيثز (ووليام سوندرسون) ... لن يثب بعد اليوم لينفذ أوامر أحد ، ولن يذل لانسان يضربه ؛ فقد أصبح الآن سيد نفسه ، سواء أكان هذا الى أفضل أو الى أسوأ فانه لن يعود ثانية .

وفى لحظة التردد نفسها التى يفكر فيها الصبى فيما سيعمل بعد ذلك جذبه طنين البحر ، كما قابلته أصوات الفرقعة والطرق الصادرة من مصانع البراميل والحدادة ، والطنين الصادر من نسيج الحبال ، وأثاره هذا أكثر مما أثارته قرية صيادى الأسماك الهادئة ــ قرية ستيثز ، وربط جيمس حزامه وسار فى المدينة بثقة وثبات .

وعلى مسافة قريبة وجد مبنى طوبيا على مرسى حجرى ، وعلى المبنى لافتة كتب عليها :

(جـون وهـــنرى ووكر)

(تجـــار)

وبجوار المرسى وجـــد سفينة راسية ذات قلاع مربعة ، وعلى مؤخرها كتب اسم (فريلوف) بأحرف من ذهب . وبالرغم من أن السفينة كانت قذرة بسبب شحنات الفحم التى كانت تحملها فى البحر الشمالى الا أن هيكلها كان نظيفا وكأنه كلب رمادى من كلاب الصيد ، تملؤها الكبرياء والجمال والقوة .

وعلى حيزوم المركب برز تمثال ملاك منحوت ·· وشعر جيمس بقلبه يرقص بين أضلعه ··· ولم يكن ليتخيل فى تلك اللحظة الدور الذى سيلعبه هذا المركب فى مستقبله ، ولكنه كان يعرف فقط أن فريلوف هى مثال السفينة التى كان يحلم بها ، فدق بجرأة باب مؤسسة السادة ووكر ودخل ·

ووجد جيمس رجلا ذا شعر أصفر جالسا أمام مائدة مبعثر عليها خرائط وأجهزة بحرية ، ونظر اليه بعينين زرقاوين ملؤهما الطيبة والذكاء تتلألآن من وراء منظار ذى اطار معدنى مربع ، واستطاع الرجل بذكائه أن يتفهم معدن الصبى المتين ونظراته الثاقبة المستوية التى يمتاز بها أهل يوركشاير ·

فسأله فى رفق : « ماذا عساك تريد يا عزيزى الصغير ؟ »

وتجرأ جيمس حين سمع لهجة الرجـل الودية ، فلقد اعتاد الاهانات من مستخدمه السابق لدرجة أنه نسى أن هناك رجالا طيبين فى العالم ، فقال :

« انى أحب أن أعمل عندكم صبيا يا سيدى » ·

فأجاب الآخر :

« حقا ؟ ومن أين أتيت ؟ لهجتك تؤكد أنك لست من هويتبى؟ »

فتردد جيمس وقال :

« انى قادم من جريت آيتون يا سيدى !! »

حملق جون ووكر :

« يالها من مسافة طويلة حقا !! متى تركت بلدك ، ولماذا ؟؟ »

فتنفس الصبى فى تردد ، لقد بدا له وكأن كل شىء يتوقف على اجابته وعلى فهم هذا الرجل ، ثم تدفقت اليـــه الكلمات فقال بسرعة :

« لقد تركت بلدى منذ عام وأكثر يا سيدى ، أرسلنى أبى لأعمل صبيا لوليام سوندرسون فى ستيثز ولكنى ٠ ٠ ٠ ولكنى يا سيدى هربت منه ، ولن أعود اليه ثانية !؟ »

وتبع هذا فترة سكون خفق لها قلب جيمس وتفحص بشغف وجه الرجل الذى نظر اليه فى رقة ، وفى ذكاء أيضا ٠

ثم قال جون ووكر :

« آه ، سوندرسون ، انى لم أسمع قط كلمة طيبة عن ذلك الرجل ٠٠٠ لقد مكثت معه يا بنى مدة أطول من أغلب الصبية الذين عملوا معه ٠٠٠ ولكن خبرنى ٠٠ هل تدرك مدى صعوبة الحياة على ظهر ناقلة فحم ؟ قد يكون بحر الشمال ألعن بحار هذا العالم ، ليس فيه مكان لمتكاسل أو متخاذل » ٠

فصاح الصبى : « انى لا أخاف العمل الشاق » وثنى عضلاته كى يثبت ذلك « فأنا تقريبا فى قوة الرجال يا ســـيدى وعلى أتم استعداد للتعليم » ٠

فذكره جون ووكر قائلا : « ولكنه من الضرورى الاستئذان من والدك » ٠

فقال الصبى : « اذا أمرت يا سيدى ، سأبعث برسالة الى والدى اليوم توا ٠٠٠ وكن واثقا من أنه سيوافق » ٠

فأجاب الرجل :

« ليكن هذا ، فأنا معجب بمظهرك يا جيمس كوك ··· وبينما ننتظر رد والدك يمكنك أن تعمل هنـــا فى الترسانة وتسكن فى بيتى » ·

وشعر جيمس براحة كبيرة وكأن عبئا ثقيلا قد انزاح عنه ، لقد تحدث اليه هذا الرجل حديث الند للند مقدما له بيته ليسكن فيه ، فامتلأ قلب الصبى امتنانا وعرفاناً بالجميل ·

وقال : « لن تندم على هذا يا سيدى ، فسأبذل قصارى جهدى كى أخدمك » ·

فأجاب جون ووكر :

« لست أشك فى هذا ، فاننى فى العادة لا أخطىء فى نظرتى الى الرجال ، أو الفتيان ·· وانى واثق من أنك رجل كامل ولست مجرد صبى » ·

وتصافحا ، ثم كتب ووكر مذكرة وقال : « خذ هذه الورقة الى زوجتى ، سترعاك وتطعمك وتعطيك غرفة ·· وليباركك الله يافتى »·

ان المصادفة وحدها هى التى قادت جيمس الى أبواب السادة جون وهنرى ووكر ، ويالها من مصادفة سعيدة حقا ، لقد كانت هذه نقطة التحول فى حياته ·

وفى الوقت المناسب وصل من جريت آيتون الرد على رسالة الصبى ، لقد وافق جيمس كوك الأب على العمل الجديد ··· وتحدث فى خطابه عن رفاهية الأسرة وعن المحصولات والماشية ، ونصح ولده أن يكون ولدا طيبا وأن يتذكر صلواته فى الليل ، وأن يخلص فى

القيام بواجباته ، كما أعرب عن أمله فى أن يجمع الله شمل الأسرة مرة ثانية تحت سقف بيتهم .

وفى الحال صعد جيمس الصغير الى ظهر فريلوف يحمل معه حاجياته القليلة وبركات والده ودعواته ، وتملكه الفرح والزهو ... لقد أصبح بحارا .

« انه ذاهب الى البحر !! »

وسنرى فى الأسابيع التالية كيف أن الصبى اكتشف أن الحياة على ظهر ناقلة فحم فى بحر الشمال (كما حذره جون ووكر) ليست سهلة ميسورة ... نقلت فريلوف شحنة من الفحم الانجليزى الصلب عبر المياه الساحلية العاصفة الى نيوكاسل ولندن . فكانت هناك أيام وليال تمر بهم مليئة ببؤس المرض ، وكان هناك الخوف الشديد الذى كان على جيمس أن يتغلب عليه ، كلما اعتلى القلاع المتأرجحة ، وكلما رقد على طرف الراجع كى يطوى الشراع . كما كانت هناك الحيرة فى حبال السفينة التى يجب أن تحفظ وأسماء الأشرعة الغريبة على سمعه ، كما كان هناك الضباط العتاة الذين يخيفون كل من تسول له نفسه العصيان أو التهرب .

هناك أيضا رفاق جيمس الغلاظ ، وهم رجال صلبتهم أعنف المدارس وأقواها ، فهنا فى غرفة البحارة كان الصبى ينمو ويتعلم أشياء جديدة فى كل ليلة يقضيها .

وعرف جيمس الصغير ، ما يعرفه شخص بالغ السذاجة يعمل فى الملاحة ؛ وهو أن الحياة فى الأسطول التجارى البريطانى أفضل بكثير من الحياة فى الأسطول الملكى ، كما أن سفن ووكر تفوق معظم

السفن الأخرى ‥ فرحلاتها قصيرة وأجور رجالها منتظمة ، ولكن بالرغم من هذه الاعتبارات كانت رحلات بحر الشمال قاسية على السفن والرجال ، على السواء ٠ فالرياح شاذة غير منتظمة ، والتيارات خائنة خداعة ، هذا الى جانب الضباب والأراضى الضحلة والشواطىء المحجوبة عن الريح ٠ كل هـــذه أخطار موجودة بصفة دائمة ٠٠٠ ولذلك كانت السفن التى لا يقودها ملاح ماهر حاذق لا تعمر طويلا ، وآمن جيمس بسرعة بأن الملاحة عبر المحيط لابد أن تكون مسألة بسيطة اذا ما قورنت بالدهاء المطلوب لمقابلة مخاطر الملاحة على مقربة من الشاطىء ٠

وكان برد الشتاء فى الجزر البريطانية ينخر فى عظام الرجال ، أما غرفة البحارة فى فريلوف فكانت دائما مغمورة بالماء ، كما كانت أسرتهم مبتلة باستمرار ، وطعامهم غير شهى ، وكثيرا ما كان الجليد يكسو الساريات والحبال ، كمـا كان البحارة يضطرون الى ضرب الشراع المتجمد بقبضات دامية كى يخضعوه ٠ ٠ فى مثل هـــذه الحالات كانت المهارة هى الثمن الوحيـــد للنجاة ٠٠٠ وهكذا بدأ جيمس يتعلم أسس الملاحة بأصعب الطرق الممكنة ، وأشقها ٠ وكان عليه أن يتذكر جيدا ما يتعلمه لأن من ينسى كان يدفع حياته ثمنا للغلط ٠

وبالرغم من كل هذا لم يندم الصبى لحظة واحدة على قراره ؛ فقد كان عنده استعداد طبيعى للعمل فى البحر ، تماما كما كان عند والده استعداد للعمل فى الزراعة ، وكان يشعر بالفرح لقدرته على التغلب على الصعاب التى تواجهه كل يوم ، وسرعان ما نسى مخاوفه القديمة ٠ وأصبح دوار البحر من ذكريات الماضى ، وأصبحت المخاطر شيئا عاديا ، فكان يمتلىء بالطرب والدهشة كلما تغلب على قوى الريح والبحر ٠



ومنذ بدء الرحلة أخذ جيمس يحتفظ بسجل ــ سجل يدون فيه ما تمر به السفينة كل يوم ومدى استجابتها له ، ولم يدع شيئا يفوته ، بل كان يدون فى كتابه كل شىء يمر به فى الرحلة الجديدة ، فيسجل الرياح والتيارات ، والسحب والطيور والأسماك ٠٠ وكان هذا الصبى الصغير يصنع أسس ملاحة نادرة المثال رغم أنه طبعا لم يكن يدرك هذا فى ذلك الوقت ٠

وعلم الصبى بأسف بالغ أن شركة ووكر ، قد استدعت « فريلوف » الى الميناء لتظل بها خلال أشهر الشتاء العصيبة ؛ لكن ان يكن هناك مدعاة للأسف فى ترك البحر ولو لمدة قصيرة الا أن الأسابيع القليلة التالية التى سيقضيها فى ترسانة هويتبى ستثبت أهميتها بالنسبة اليه ، فقد وضعت قاعدة ناقلة فحم جديدة حمولتها ٦٠٠ طن ، واشترك جيمس كوك فى بنائها وسميت : « الأشقاء الثلاثة »، كما أن هذه الفترة التى قضاها فى بيت أسرة ووكر اللطيف أنسته مشاق ومتاعب الحياة فى البحر ٠

وسرعان ما أصبحت مسز ووكر أما ثانية لهذا الفتى الهادىء الجاد ، فاعتنت بطعامه ، وأصلحت ثيابه ، فشعر جيمس لأول مرة بالوحدة التى كان يعيش فيها قبل ذاك • وكانت رفوف المكتبة مكتظة بالكتب عن المسائل البحرية فنزل الصبى الى الكتب كما تنزل البطة الى الماء ، وفى المساء بعد العشاء كان ينشر كتبه على مائدة الطعام ويبدأ فى دراسة مسائل الملاحة المعقدة فى ضوء الشمعة ، واستهوته الخرائط ، كما نفد صبره حين رأى المساحات الشاسعة التى عليها علامة « مجهولة » • صحيح أن رسامى الخرائط استطاعوا أن يملأوا مثل هـــذه المساحات الشاسعة برســـوم خيالية لعرائس البحر ، والدرافيل ، أو بصور عولى (اله البحر) وهو ينفث الرياح •• ولكن كان هناك نوع من التحدى الظاهر فى هذه الأماكن المجهولة أثارت خيال الصبى وأدهشته •• وأكد أكبر راسم خرائط فى الأسطول الملكى ـ ويدعى الكسندر دالريمبل ـ أن هنـــاك قارة عظيمة فى القطب الجنوبى تحتوى على ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة • وتعجب جيمس كيف يمكن لدالريمبل أن يؤكد هذا ، على حين لم تكتشف بعد هذه القارة المزعومة ؟

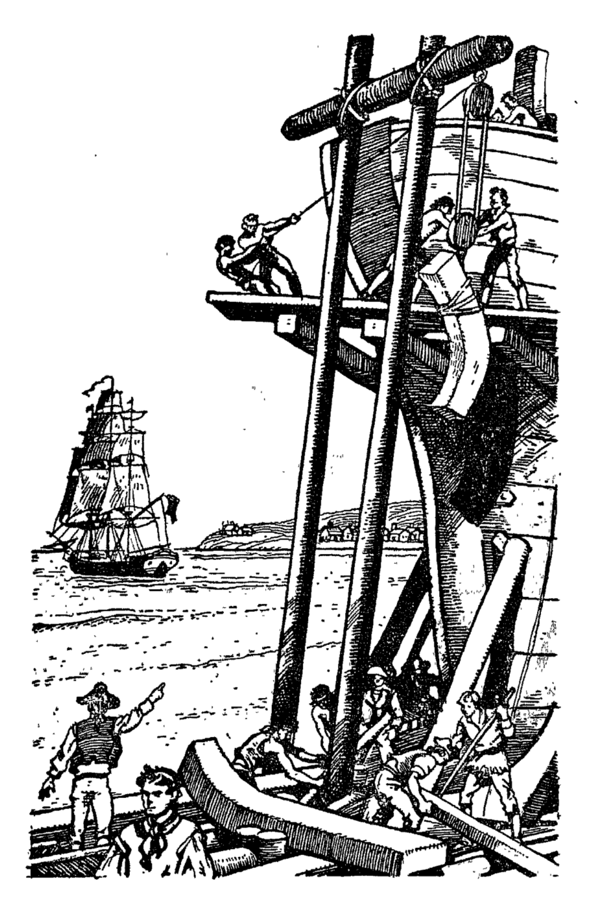
وزادت مهارة جيمس ومعرفته بالرياضة نتيجة لتوجيهات جون ووكر وتشجيعه ، ففهم الأرقام والرسوم الهندسية بسهولة ، وبدا حساب المثلثات بالنسبة له أبسط من موضوعات الانشاء ، وتردد فى بادىء الأمر قبل أن يخوض فى علم الفلك ، ولكن سرعان ما أعجب به واندمج فى هذا العلم العتيق اندماجا كبيرا •• وهكذا اعتنى مستر ووكر بالغذاء العقلى لجيمس ، كما اعتنت زوجته بحاجاته المادية •

وبالنهار قدمت له ترسانة السفن تسلية لا تنتهى منذ وضعت ركائز خشبية فى مزلقان السفن كى تكون مهدا « للأشقاء الثلاثة » وامتلأ الجو برنين أخشاب البلوط والصنوبر المنشور حديثا ، كما

دوت أصوات المطارق ، والحديد • وانتشرت نشارة الخشب كالضباب، وتوهج لهب الحدادين فى الهـــواء ولـــكن جيمس كوك لم ينظر الى « الأشـــفاء الثلاثة » على أنها ناقلة فحم أخرى • بل كانت حديدا وأخشابا تخرج الى الحياة بأيدى صناع مهرة ، وكانت ضمن وظائفه المساعدة على تصميم شبكة حبال السفينة المعقدة ، وهى تجربة قيمة طبعت فى ذهن الصبى عمل كل جزء ثابت ومتحرك من حبال سفينة ذات أشرعة ثلاثة ••• وزادت هذه السفينة من اعتقاده بأن ناقلة فحم فى بحر الشـــمال هى أحب أنواع السفن الى قلبه ••• ولم يتحول لحظة عن هذا الاعتقاد •

وهكذا مرت سنوات تلمذة جيمس ، مرت سريعا مرور طيور البحر فى الضباب • وانقضت أربعة أشهر فى رحلات عنيفة ، تتبعها فصول شتاء قضاها على الشاطىء فى ترسانات هويتبى •• ولم يعد جيمس كوك صبيا ، بل أصبح شابا طويل القامة ، عريض الأكتاف ، يبحر على ظهر السفن التى يساعد فى بنائها ، كما كان يصلح الخلل الذى يجده فى السفينة سواء أكان فى هيلكها أم قلاعها أم حبالها • وزادت معرفته بالملاحة وأصبح يعرف موانىء فرنسا وهولندا والنرويج والدانمارك • وأصبحت لابن الفلاح الذى جاء من جريت آيتون قدم ثابتة على الدرجة الأولى من سلم مرتفع •

ولكن كانت هناك روح جديدة فى الجو ؛ فقد كانت أوروبا تغلى بالدسائس والمكائد • وكان فردريك الثانى فى ألمانيا متعطشا للسلطة ••• وذعرت فرنسا وروسيا وأيدتهما النمسا فى موقفهما ضد فردريك ، وكان الملك جورج الثانى ملك انجلترا الذى ولد فى ألمانيا يعطف عليها ، كما كان هناك عداء تقليدى بين فرنسا وانجلترا وكل حركة تضعف الأولى تقوى الثانية ••• وهكذا فاحت فى الجو رائحة حرب عظمى ، ولكن لم يعرف أحد متى تبدأ •



كانت السفينة تخرج الى الحياة بأيدى صناع مهرة .

وسمع جيمس كوك هذا الكلام فى نهر التيمز ، وكثيرا ما كان يثيره المنظر الرائع لأسطول الملك الذى يسيطر على البحار سيطرة لا ينازعه فيها أحد ··· وفجأة بدا له نظام « روتين » الخدمة على ناقلات الفحم سخيفا تافها ، وبدأت تتبلور فكرة جديدة فى ذهنه ·

وبعد ظهر ذلك اليوم أرسل جون ووكر فى طلبه ، وبدأ الرجل وكأنه يحمل اليـــه أنباء هامة سارة ··· فقد كان ســـلامه حارا وابتسامته رقيقة ·

فاستفسر جيمس : « هل أرسلت فى طلبى يا سيدى ؟ »

وأجاب الآخر : نعم فعلت ياجيمس كوك ، لقـــد خدمتنى منـــذ البـــداية باخلاص وتفان وارتفعت وعظم شأنك بمجهوداتك الخاصة ومثابرتك ·· انك بحار بحق يا بنى وأنا فخور بك » ·

فدهش الشاب ، مما جعل جون ووكر يسرع فى اتمام حديثه : « هذا هو الوقت المناسب لترقيتك التى تستحقها ، ولذا قررت أن أسلمك قيادة « الصداقة » ·

وكانت « الصداقة » أحدث وأحسن ناقلات الفحم التى يمتلكها ووكر ، وامتلأ قلبه فرحا ، ان مثل هذه الوظيفة تجعل منه ضابطا عظيما لسفينة عمل فيها وكيلا للقبطان مدة أكثر من عامين ، كمـــا تعنى أنه أتقن مهنته وعمله كل هذه السنين التى خدم فيها فى البحر وفى الترسانات ، وهذا هو الاعتراف الصريح بذلك ، ونظر فى عينى صديقه القديم الزرقاوين البراقتين الأمينتين وشعر بالألم بسبب الرد الذى يجب أن يعطيه ·

ثم قال فى بطء : « انك تشرفنى بمثل هذا العطاء يا سيدى ، ولكننى عاجز عن التعبير عن أسفى الشديد ؛ اذ لابد أن أرفض » • ولهث جون ووكر كما لو أنه لم يسمع جيدا ، ثم قال :« ترفض ؟ هل جننت يا بنى ؟ هأنذا أقدم لك ما كنت تعمل من أجله طوال هذه السنين » •

فأجاب الآخر : « أعرف هذا ••• ولكن انجلترا قد تدخل الحرب بين يوم وآخر وأرى من واجبى أن أقدم خدماتى للملك » •

فصاح جون ووكر قائلا : « ولكنه سيكون عليك أن تبدأ من أسفل الدرج مرة ثانية • واذا نشبت الحرب فلن تضطر الى العمل فى خدمة الملك ما دمت تعمل فى سفينة تجارية ••• أضف الى هذا أن الأسطول الملكى أسطول متعاظم لا يصل الى مرتبة الضباط فيه الا أبناء السادة » •

فابتسم جيمس كوك ابتسامة هادئة : « وما أنا الا ابن فلاح ليست له اتصالات أو صداقات كريمة ••• ولكنك نسيت يا سيدى أننى أختلف عن أغلب السادة الذين يعملون فى خدمة الملك فى أننى أعرف السفن والملاحة ، وأنا مستعد أن أقوم بكل عمل فى السفينة ، وما دام المرء يستطيع أن يقود السفينة فماذا يهم اذن لو كان قد ولد فى كوخ حجرى أو فى قلعة عظيمة ؟ »

فنهض جون ووكر وأمسك بيد الشاب ، وبدت على وجهه ابتسامة عطف كبير محت عنه خيبة الأمل :

« انى أرى أنك قد عقدت العزم ولم يحدث قط أن اثنيت عن عزمك • فمن أنا اذن حتى أحاول ؟ واذا وصلت الحرب الى هذه

الدولة المباركة فلن يكسبها لانجلترا الا رجال مثلك ·· بارك الله فيك ورعاك يا جيمس كوك ؟ »

وفى صباح اليوم التالى ـ السابع عشر من يونيو ١٧٥٥ ـ وقع بحار قدير اثباتا لحضوره على ظهر السفينة الحربية « ايجل » أى النسر ·



الفصل الرابع

بحار الملك

وبالرغم من أن الحرب لم تكن قد أعلنت بعد رسميا الا أن انجلترا ضربت حصارا حول ساحل فرنسا . وبمثل هذه الوسيلة أمل الملك جورج أن يمنع الامدادات من أن تصل الى المستوطنين الفرنسيين فى كندا ، حيث كان القتال بين المستعمرين الفرنسيين والمستعمرين الأمريكيين الانجليز قد بدأ منذ أكثر من سنة ؛ لأن هاتين الدولتين ستتشابكان أخيرا فى العالم الجديد .

وكانت هذه هى فكرة وليام بيت حين أصبح رئيس وزراء انجلترا ، لأنه كان يعتقد أن مستقبل بلده يكمن فى ثروته من

الأراضى الخارجية ··· وكان على بيت أن يمتلك كل أمريكا الشمالية وأن يطرد منها الفرنسيين والأسبانيين الى الأبد باسم التاج ·· وكان حصار فرنسا هو أول مناوشة ·

واشتركت سفينة جلالة الملك الحربية « ايجل » بقيادة الكابتن جوزيف هيمر مع مجموعة السفن المحاصرة ، أما جيمس كوك فقد أصبح فى مرتبة بحار عادى فى هـــذه السفينة ، لأن وصول رجل مثله من أصل فقير الى مكان مرموق أمر يحتاج الى صراع طويل لا يمكن التنبؤ بنتيجته ·· ومع هذا فان من صفات كوك أنه اذا اتخذ قرارا لم يتراجع فيه قط ··· وتحمس لفكرة العمل من أجل غايته · فلقد أصبحت الفترة الطويلة التى قضاها فى التعليم على ناقلة الفحم فى رحلاتها فى بحر الشمال كئيبة ودون مستواه بكثير ·· ولو أنه عرف جيدا أنه قد خطا خطوة كبيرة ··· وأشرق المستقبل أمامه كما أنذر بالخطر ·

ولما كان من الصعب حث البحارين على تقييد أسمائهم فى الأســـطول الملكى ، فقد أمسكوا بكثـــير من الرجال من كل نوع واضطروهم الى الالتحاق كرها بالخدمة · وكان أغلب الرجال ممن لم ينزلوا قط الى البحر ، وممن ليست لهم مؤهلات لمثل هذه الحياة ·· وخلت السجون من المذنبين والمجرمين الذين وعدوا بتخفيف عقوباتهم لو تطوعوا بالالتحاق بالخدمة·كما قام رجال الملك بحملات على الحانات التى بالسواحل وسحبوا ضحاياهم طوعا أو كرها الى ظهر أحسن السفن الحربية ·

ولم يختلف بحارة « ايجل » عن هؤلاء ، فامتلأت غرفة البحارة بالنشالين والمتسولين ، والسفلة والأوغاد ، الذين قدموا من الأزقة والطرقات ، ولاح جيمس كوك وسط هذه الجماعة الآسفة كما يلوح

البرج وسط الضباب ، وسرعان ما اكتشف أن الكابتن هيمر وضباطه لا يعرفون عن الملاحة أكثر مما يعرف الجنود الجدد ٠٠ وكانت هذه هى الحال دائما ، فى الأسطول الملكى ؛ لأن ضباط القيادات كانوا يختارون من بين أبناء الأرستقراطيين الذين لا يعرفون الفرق بين « الملوينة » والابرة المغناطيسية ٠ وعلى هذا فقد مدت جميع السفن الملكية بقائد الاقلاع ، وكان واجب هذا الفرد أن يرسم خط سـير السفينة ، ويحسب موقعها فى البحر ، ويعطى الأوامر للبحارة بطى الشراع ونشره ، ثم يلى قائد الاقلاع مساعده ٠٠ وكان هذان الرجلان مسئولين عن ابحار السفينة ، ولم يكن الضباط يتولون السلطة فى السفينة الا أثناء المعارك وحتى فى هـذه الفترة كان قائد الاقلاع ومساعده يراقبانهم ٠

وسرعان ما لاحظ كابتن هيمر تفوق جيمس كوك على رفاقه ، فقد كان يختلف عن أغلب هؤلاء البحارة السوقة فى أنه عمل فى البحر من قبل ، وكان يفهم أسرار الملاحة وفن الاقلاع ، كما أنه يشك فى مدى معرفة هيمر نفسه لهذه الأعمال ٠٠ وعلى أى حال فقد وجد جيمس كوك نفسه يرتقى الى وظيفة مساعد قائد الاقلاع فى خلال ستة وثلاثين يوما من عمله على ظهر « ايجل » النسر ٠٠٠ ها هى ذى وظيفة كبيرة كالتى عرضها عليه جون ووكر ، فى حين حذره جون ووكر من أنه اذا انضم الى البحرية الملكية فسيضطر الى أن يبدأ من أول السلم ٠٠٠ ولو كان كوك يفخر بهذه الترقية السريعة فانه لم يدونها فى مذكراته التى كان يسجلها أثناء فترة راحته ٠٠٠ ربما لأنه قبلها بهدوء وثقة على أنها حقه الطبيعى ٠

وكانت الأوامر قد صدرت الى الكابتن هيمر بأن يحرس مساحة كبيرة من البحر مليئة بالعواصف وتمتد من لاندز اند الى أقصى الطرف الجنوبى من أيرلندا ٠٠٠ كما كان عليه أن يشتبك مع أية سفينة

فرنسية يراها ٠٠٠ ولكى تقــوم « النسر » بهذا الواجب الضخم دخلت فى عاصفة شديدة جدا وأصابها عطب شديد لدرجة أن هيمر فكر فى أنه من الأفضل أن يعيدها الى بليموث لاصلاحها ٠

وتلكأ هيمر فى بليموث خلال أشهر الصيف الجميلة ، على حين كان جيمس كوك يغلى فى سكون لمثل هذا العجز ٠٠٠ وبدا له أن الكابتن هيمر لم يكن يتحمل عمل الحصار الخطير ٠٠ ولما وصل الى علم قواد السلاح البحرى خبر التأخر الذى لا داعى له أعفى قائد « النسر » من قيادته فورا ٠٠٠ وهذه احدى ضربات الحظ التى زينت حياة جيمس كوك ؛ لأن الرجل الذى حل محل هيمر الجبان هو سير هيو بوليزر ٠

وبوليزر نفســـه رجل من رجالات يوركشير ، ومقدر له أن يصبح فى الوقت المناسب حاكم نيوفوندلاند وأحـــد قادة السلاح البحرى ٠٠ وعرف بوليزر لتوه الصفات النادرة التى تميز شخصية مساعد قائد الاقلاع الشاب ٠

ولهذا نرى أنه بالرغم من الاختلافات الأصلية الطبيعية التى ربما تحول بين بارون انجليزى وبين ابن فلاح الا أن الرجلين كونا بداية صداقة تستمر مدى الحياة ٠٠٠ وسنرى كيف أن سـير هيو بوليزر هـــو الذى سيساعد جيمس كوك على الترقى من منصب الى آخر ٠ ومضت الشـــهور ٠٠ وفى مايو ١٧٥٦ تبلور الصراع بين انجلترا وفرنسا ، ذلك الصراع الذى ظلت تفوح رائحته قرونا عديدة ٠٠٠ وأعلنت رسميا حرب السبع السنوات ، وفى مدى سنة واحدة اشتهرت « النسر » حين فاجأت وهاجمت السفينة الفرنسية ذات المدافع الخمسين ، « دك داكيتين » ٠٠ وخرجت السفينة الانجليزية منتصرة من المعركة ، ولكنها تحطمت كلها تقريبا مما دعا جميـــع رجالها الى أن يعملوا بالمضخات كى يوصلها الى بليموث ٠

وفهم جيمس كوك أن حالة « النسر » هـــذه تقتضى أسابيع طويلة ، بل ربما أشهرا تقضيها فى اصلاحات فى الحوض الجاف فى الشاطىء ··· ولم يكن هـــذا هدفه حين ســجل اسمه فى البحرية الملكية ·· وسرعان ما شعر بالملل حين فكر فى الخطوات التى ما زال عليه أن يصعدها كى يصل الى هدفه ··· ولكنه لابد أن يأتى اليوم الذى يرتدى فيه زى الضابط الملازم ، أو زى الضابط الآمر ، بل ربما ارتدى زى القبطان ولكن الوقت له أهمية عظيمة ، ودخل عامه الثانى وقرر أن يطلب نقله الى سفينة تعمل فى الميدان ·

وبينما كانا يجلسان فى القمرة الخلفية « للنسر » والأبواب مغلقة كى تكتم صوت الطرق الذى يسببه بحارة المركب حملق سير هيو بوليزر فى وجه الشاب الذى كان يواجهه ، وفكر ··· فقد أعجبه ما رأى : العينان المستويتان الصافيتان ··· والأنف الشامخ، والأذن المربعة ، والرأس الموضوع بجمال فوق رقبة قوية ··· نعم ان جيمس كوك منال الرجل الذى يحوز الاعجاب ويوحى بالثقة ·

وسأله بوليزر : « اذن فأنت تريد أن تنقل ، أليس كذلك ؟ »

وكانت اجابة جيمس : « نعم يا سيدى · فان أى بحار أو حداد ماهر يستطيع أن يصلح « النسر » ولكن هذا يستغرق أشهرا عدة ، ولا تنس أن هناك حربا قائمة وأحب أن أكون فيها يا سيدى ، أضف الى ذلك أننى على الشاطىء أشعر وكأنى سمكة خارج الماء ·

وابتســم بوليزر ، وبالرغم من أن جيمس كوك لم يســـتغل صداقتهما قط ولم يتجرأ عليه ولم يتعد الحد القاطع الذى يفصــل قبطان سفينة عن مساعد قائد الاقلاع · بالرغم من هذا فاننا نجد الرجلين متفاهمين معجبين أحدهما بالآخر · ورفع القبطان أحـــد حاجبيه فى تساؤل وقال : « ترى هل فكرت فى ترقية أخرى ؟ »

وبرقت عينا كوك وهـــو يقول : « لم أفكر فى غير هـــذا يا سيدى » .

« هذا هو ما ظننته ... كم عمرك ؟ »

« تسع وعشرون يا سيدى » .

فرفع بوليزر نظره بسرعة ثم قال : « لست أكبر بكثير مما أفكر فيـــه ... ما قولك لو أنى أوصيت بجعلك قائد الاقلاع فى البمبروك ؟ » .

لو قيل هذا لشخص آخر غير جيمس كوك لدهش جدا ، لأن البمبروك احـــدى الســـفن التسع عشرة التى يقودها الأدميرال بوسكاوين والتى تستعد لمهاجمة الفرنسيين فى كندا ... وكان تولى شاب فى الحلقة الثالثة من عمره وظيفة قائد الاقلاع فى سفينة مثل هذه يعتبر نصرا كبيرا .

فقال كوك : « أحقا تعنى ما تقول يا سيدى ؟ » .

فعبس هيو بوليزر فى قسوة مصطنعة : « أنا لا أتكلم عبثا أيها الشاب .. وأعدك لو صبرت قليلا بأننى سأوصى بترقيتك فورا ، فأنت مستعد تماما لوظيفة قائد الاقلاع ، وفى الواقع أنك تستحقها لجدك وكفايتك » .

ونهض الرجلان تملؤهما عاطفة صادقة .

وقال بوليزر ببطء : « ســـتفتقد « النسر » خدماتك ، كمـــا سأفتقدك أنا أيضا ولن يملأ مكانك أحد ... ولكن تأخر تقدمك ورقيك ليس من العدل فى شىء فلقد وصلت فى خدمة الملك درجة أعلى مما يتطلع اليه أغلب البحارة » .



وهاجمت « النسر » السفينة الفرنسية « دك داكيتين » .

واحتج الآخر قائلا : « لقد كنت محظوظا للغاية ٠٠٠ محظوظا اذ عرفت رجالا مثلك ٠٠ كيف أعبر لك عن شكرى وامتنانى يا سيدى ؟ » وخرجت هذه الكلمات صادقة خالصة من عميق فؤاده ٠

فرد هيو بوليزر قائلا : « لا داعى لشكرى ، لأن لدى اعتقادا أكيدا أن انجلترا نفسها هى التى ستشكرك ٠ فالعالم ينتظر رجلا يعرف ما يفعل ٠٠٠ أرجو لك التوفيق والحظ السعيد يا صديقى » ٠

وحيا كل منهما الآخر ، وابتسم له ابتسامة رقيقة ثم افترقا ٠

ورغم قلق جيمس كوك فقد سارت أمور الدولة ببطء شديد وتثاقل الحصار ٠٠ وأنجز هيو بوليزر وعده ، فتسلم كوك وظيفته كقائد اقلاع فى سفينة بمبروك فى أكتوبر ١٧٥٧ ومع هذا مضى عام كامل قبل أن يتجمع أسطول الأدميرال بوسكاوين فى ميناء بليموث المزدحم ٠٠ لأن وليام بيت اضطر أن يرجىء خطته الخاصة بضرب المستعمرات الفرنسية فى كندا حتى يبني أسطول من السفن الجديدة ، لأنه كان لابد من بقاء الحصار على فرنسا على حين تشن الحرب فى أمريكا الشمالية ٠

وأخيرا حانت الساعة ، وكانت هذه لحظة مثيرة لجيمس كوك ــ فمجرد فكرة رؤية العالم الجديد ملأت عليه خياله ٠٠ لأن أوربا قد هرمت وأمست مجهدة ومتعبة ، ولكن تلك القارة الشاسعة عبر المحيط ــ التى لم يعرف عنها الا القليل والتى لم تستغل مواردها بعد ــ تعتبر غنيمة عظيمة ٠٠٠ والدولة التى تكسب هذه الغنيمة لابد أن تصبح أقوى دولة على سطح الأرض ٠

وكان عليهم أن يعبروا الأطلنطى فى شهر فبراير رغم أنه وقت سيىء للغاية فى القيام بهذه المهمة ٠٠٠ فأقلقت الزوابع والتيارات

المضادة الأسطول ، ومثلت جبال الثلج خطرا دائما عليه ، فتشتتت سفن الأسطول ، واضطر قائد الاقلاع الشـــاب فى البمبروك الى استخدام كل ما يعرف من حيل الملاحة وفنها ، واستمر عبور الأطلنطى هذا أحد عشر أسبوعا رغم أنه كان يستغرق أسبوعين أو ثلاثة أسابيع فى الأحوال العادية ٠

ولـــكن هـــذا كله كان أقل المحن التى واجهت جيمس كوك وأبسطها فلقد انتشر داء الأسقربوط الرهيب بين بحارة السفينة ٠٠ وبدأت الأسابيع الأحد عشر التى يقضيها البحارة فى البرد القارس دون أكل « طازج » ، أو ماء « طازج » ، بملابس مبـــللة ، وفراش لا يعرف الجفاف ، بدأت تظهر آثارها على البحارة٠٠وذعر قائد الاقلاع حين وجد بحارته يهوون واحـــدا تلو الآخر ، وانتفخت مفاصلهم وانقصمت عظامهم من أقـــل مجهود ، ودميت لثاتهم ، وتساقطت أسنانهم وسادهم ضعف شديد لدرجة أنهم لم يعودوا ينفذون أبسط الأوامر الا بصعوبة ٠

ها هى ذى مصيبة كبرى فداء الأسقربوط يستطيع أن يحطم سفينة ويقضى عليها تماما كما تحطمها زوبعة أو تقضى عليها الصخور.

ولكنها مشكلة فحصها جيمس كوك توا ؛ فقد كان هذا الموقف الفظيع بداية لأكبر عون قدمه للملاحة ، ألا وهو قهر الاسقربوط ٠

وسأل جيمس كوك نفسه : ما السر فى أن البحار العادى هو الذى يصاب بينما لا يصاب ضابط السفينة ؟ أيمكن أن يكون سبب مرض الاسقربوط هو أحوال معيشة البحارة داخل غرفهم ، لقـد فهم كوك هذه الأحوال فهما جيدا ! ففى السفن التجارية حيث كانت الرحلات قصيرة والبحارة فى يسر كان المرض أقل انتشارا منه فى البحرية ٠ أما فى البحرية الملكية فقد كان البحارة يعيشون على لحم

الخنزير المملح فى ماء قذر،أو على البسكويت الناشف الملىء بالسوس. أما ماء الشرب فقد كان بنى اللون ردىء الطعم موضوعا فى براميل قذرة كريهة كما كانت هناك الديدان الموجودة فى غرفة البحارة التى أحضرها المجرمون والشحاذون معهم فى خرقهم البالية ، أضف الى ذلك عادة الجلد الوحشية التى كانت عقابا لأدنى اساءة يأتيها البحارة ... كل هـــذه أوهنت قوى البحار وجعلت منـــه فريسة سهلة للمرض .

وعلى العكس من هذا نرى أن مائدة الضباط كانت دائما مكتظة بلحم الخنزير ، وأنواع الجبن المختلفة ، ولحم البقر المدخن ، والبيض ، وفطائر الفاكهة ، والخمور المعتقة ، ولم يكن مرض الاسقربوط يظهر بين الضـــباط الا فى الرحلات الطويلة جـــدا حين تبدأ مؤنهم فى الانتهاء .

نعم ، ما من شك فى أن أسباب مرض الاسقربوط هى ســوء التغذية والمعيشة القذرة ، وبدأت تتكون فكرة فى عقل جيمس كوك الباطن ، ففى يوم من الأيام سيبدأ اجراء التجارب على حفظ الأطعمة : الخضر والفاكهة ، لماذا لا يجفف الجزر والتفاح والباذلاء والفاصوليا ويحفظ لمدة طويلة ؟ ان من المؤكد أن الرجال الأصحاء أكثر مقاومة للمرض .

وبدأت هذه الفكرة الجديدة على رجال البحرية تنمو وتترعرع فى أرض غنية .. وفى أحد الأيام ستنبت وتزدهر .

وفى نفس الوقت ، مات تسعة وعشرون شخصا من البحارة العاملين على ظهر « البمبروك » فى حين أصبح أكثر من ضعف هـذا العدد عاجزين عن القيام بواجباتهم ، وأخيرا رأى المراقبون أرض كندا

عن بعد ، كان لهذا العالم الجديد وقع جميل فى نفس قائد الاقلاع المتعب « جيمس كوك » وكأنها أرض الميعاد ٠

* * *

« وكان شتاء عام ١٧٥٩ أقسى شتاء عرفه المستعمرون فى أمريكا وفى الربيع وصل الأدميرال السير تشارلز سوندرز من انجلترا لمساعدة الجنرال وولف على ارغام العدو على الاستسلام ، كان الجليد لا يزال موجودا فى مصب نهر سانت لورنس وفكر وولف فى خطة جريئة وهى ابحار الأسطول الانجليزى توا الى أعالى نهر كيوبك، وبهذا يفاجىء مونتكالم ٠ لأن الفرنسيين كانوا واثقين أن جميع السفن كانت كبيرة جدا ومن الصعب عليها أن تتغلب على متاهات الصخور ، والجنادل التى فى سانت لورنس ٠ ولم تكن هناك أية خرائط الا تلك التى يمتلكها الفرنسيون أنفسهم ، كما أنه من الواضح ضرورة مسح هذه المنطقة ومعرفة أماكن الغور فيها قبل أن يتحرك أسطول سوندرز للعمل فيها ٠ ولكن مسح نهر خائن كهذا النهر (الذى تسيطر عليه مدفعية العدو) يحتاج الى شجاعة فائقة وأعصاب ثابتة ومهارة كبيرة فى فن رسم الخرائط الشاق ٠ أين يوجد مثل هذا الرجل ؟ ان القلائل فقط من المدفعية البريطانية يستطيعون قراءة الخرائط فما بالك برسمها ؟

وأرسل تشارلز سوندرز توا فى طلب جيمس كوك ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى وقف فيها جيمس كوك أمام ذلك الرجل الشهير رغم أنه كثيرا ما سمع عنه ، وكان سوندرز قد طاف حول العالم وهو ملازم أول مع آنسون العظيم ، وانهالت عليه ألوان التكريم والتمجيد ، ولكنه لم يكن يتفاخر بهذا كما كان يفعل بقية الضباط ٠٠ وكان مصنوعا من نفس المادة الصلبة التى صنع منها

جيمس كوك ، ولهذا أحب كل منهما الآخر فى الحال ، وشعر كوك بشيء من الاضطراب والتوتر مما جعله يحس أنه انما يقف مرة ثانية عند نقطة تحول هامة فى حياته ٠

ودخل الأدميرال فى الموضوع رأسا وقال : « انى سمعت عنك الكثير يا كوك من هيو بوليزر » ٠

بوليزر ٠٠٠ صديقه القديم فابتسم جيمس كوك : « أعتقد يا سيدى أنك لم تسمع الا خيرا !! » ٠

فضحك الأدميرال ضحكة فاترة : « يمكنك أن تعتمد على هذا ٠٠ أخبرنى بوليزر ضمن مديحه ـ أنك تفهم فى المساحة وصناعة الخرائط » ٠

فتردد الآخر وهو يقول : « لقد درست المساحة ، ولكنى لا أزعم أنى أعرف الكثير يا سيدى » ٠

فصاح سوندرز : « أنقذنى ! حتى هذا القليل أكثر مما يعرف بقيتنا ٠٠٠ لقد حطم الفرنسيون جميع العوامات والعلامات التى فى النهر ، ولهذا يجب معرفة الأماكن الضحلة ويجب عمل الخرائط قبل أن يتحرك الأسطول الى كويبك ٠٠٠ ان هذا عملك يا كوك ، انه لعمل خطير جدا ، لا يمكن القيام به الا ليلا ، لأن الفرنسيين متحالفون مع الهنود ٠٠٠ وضغط الرجل على قبضة يده ثم قال : «عد بتلك الخرائط مهما كلفك هذا من ثمن !! »

فضرب كوك عقبى حذائه وقال : « سأبذل جهدى يا سيدى » ٠

فاستراح الأدميرال ، وضحك ضحكا مكتوما : « أخبرنى بوليزر ـ لو أن ما أتذكر صحيح ـ أن بذل جهدك هذا كاف جدا ٠٠

نسيت أن أسألك عن تدريبك ، لابد أن تكون من الدفعات الحديثة التى التحقت بالأكاديمية العلمية الملكية ، والا كنت أتذكرك ، أنت طبعا درست هناك » ٠

« كلا يا سيدى ، لم أفعل !! »

فرفع الأدميرال حاجبيه « حقا ؟ أين درست اذا ؟ »

ونظر جيمس كوك الى ضابطه الأعلى نظرة الند ٠٠٠ كان هناك فارق كبير بينهما فقائده من أسرة عريقة ، ذات غنى وذات أسلاف توارثوا تقاليد البحرية ٠٠٠ ولكن كوك كان فخورا بنفسه يعرف حق قدره ، وهو يجيب : « انى أتعلم بنفسى يا سيدى منذ الثانية عشرة من سنى : « ودهش سوندرز وأطلق صفارة وصاح : « يا للسماء ٠٠ شىء نادر لم أسمع فى حياتى عن شىء كهذا !! » ٠ وبدا الاعجاب على وجهه وعلى ضغطة يده وهو يسلم على الشاب : « حسنا ٠ حسنا ! أرجو لك كل نجاح يا كوك ، وتذكر أن مصير الفرقة بأكملها ومصير كل رجل فيها يتوقف على مدى نجاحك فى القيام بهذه المهمة ٠

« لن أنسى ٠٠٠ ثق من هذا تماما ياسيدى » ٠

وترك جيمس كوك الأدميرال وخرج يمشى بخفة ، لقد كان يعرف أن معلوماته عن المساحة ليست كثيرة ، ولكنه شعر أنه لن يفشل ؛ فقد كانت هناك دائما قوة ما اسمها الحظ ، أو المصادفة ، سمها ما شئت ، ولكنها كانت تساعده على كل أزمة صـــادفها فى حياته ولكنه فهم لأول مرة أنه لم ينتظر الحظ قط ، بل كان دائما مستعدا حين تواتيه الفرصة ، وأقسم ألا يستريح حتى يتعلم أكبر كمية ممكنة من المساحة وعمل الخرائط ٠ أما عن الخطر فالخطر عنده كاللحم والنبيذ عند رجل يكاد يموت جوعا ٠

وشعر جيمس كوك بالحيوية تسرى فى كل جسمه ، من قمة رأسه الى أخمص قدمه • آه ، لقد كانت الحياة طيبة معه •

* * *

وعلى بعد حوالى عشرة أميال من كويبك كان نهر سانت لورنس يضيق ، وفى وسطه (فى الطرف الشرقى لجزيرة أورليانز) كانت توجد جزر صغيرة كثيرة خداعة مليئة بالصخور ، وفى هـــذه المنطقة كان مجرى النهر الذى يتبع الضفة الشمالية يعبر الى الجنوب ويمر فيما يسمى بالترافرس ـ مساحة خطرة جدا من الماء وتواجه المعسكر الذى يتحصن فيه الجيش الفرنسى ، وكانت خطة سوندرز أن يبحر بأسطوله ومارا تحت نيران مدفعية العدو كى يقذفهم بقنابله ويغطى تقدم جيش وولف •

ولهذا فقد كانت دقة جيمس كوك فى القيام بهذه المهمة فى غاية الأهمية ، لأنه اذا فشل تعرض الأسطول لخطر كبير ضاعت كندا من انجلترا الى الأبد •

وكان الرجل الطويل النحيل الذى وقف تلك الليلة المعتمة على حافة النهر يعطى تعليماته النهائية للجغرافيين الذين اختيروا معه ، كان هذا الرجل يدرك جيدا مدى الخطر الذى يواجهه والجزاء العظيم الذى ينتظره ، ومع هذا كان جيمس كوك ثابتا واثقا من نفسه وهو يتسلق مؤخرة القارب الصغير ، وأعطى أوامره بالرحيل •

لم يكن القمر ظاهرا ، ولكن النجوم كانت تتلألأ فى السماء المعتمة وكانت الغابات المظلمة تحيط بهم من جميع الجهات والنهر الغامض يهمس وهو يتحرك من مجهول الى مجهول • وبدا العالم كله وكأنه يحبس أنفاسه لينصت •• وعلى مســـافة قريبة بدت عينا

حيوان ليلى تشع منهما نار خضراء للحظة بسيطة ثم اختفت ، وضغط كوك شفتيه ... قد تكون هناك فى هذه اللحظة أعين أخرى هندية حادة تتبع كل حركة من حركاته ــ وحذر رجاله فى صوت خافت : « بثبات أيها الرجال ، أكتموا أصوات مساند المجاديف هذه ! ابقوا باليسار هناك ــ » .

وأمسك المجداف المحرك بيدين ثابتتين وحملق أمامه ، وجاء صوت مكتوم من مكان ما فى وسط الغابة ، صوت دق طبول خافت ــ صوت أحس به أكثر مما سمعه يدق فى الأحشاء أكثر مما يدق فى الآذان ، وسمع كوك صوت تنفس الجدافين السريع ، ووسط هذا التوتر المتزايد بسبب الليل والخطر شعر بكل قدراته ومهارته تتجمع وتتركز وكأنها زنبرك صلب ، وجذب التيار المظلم القارب الصغير ودفع به الى وسط النهر ، وكانت هناك ثقالة من الرصاص مربوطة بخيط خفيف قوى وعليه علامات لقياس الأعماق ، وألقى كوك بالخيط من مؤخرة السفينة الى الماء وأخذ ينزله رويدا رويدا حتى وصلت الرصاصة الى القاع ،وقاس أعماق البحر فى أماكن مختلفة يبعد كل منها عن الآخر عشر ياردات ، وأخذ يلاحظ النجوم ويسجل مذكراته على أوراق لا يكاد يراها ، لم يفته شىء ولم يغب شىء عن عينه الحادة وذاكرته القوية .

ولم يره كشافة العدو الهنود الا فى الليلة الثالثة ، وفى تلك الليلة كان العمل قد أنجز لتوه فى اللحظة المناسبة ، وبينما كان رجال كوك يقودون قاربهم عائدين من حيث أتوا كانت مجموعة من الزوارق تنزل الى النهر قادمة من الشاطىء المظلم مليئة بالأهالى وهم يصيحون .

وصاح كوك : «أسرعوا أيها الرجال ، انهم يطاردوننا ! فأسرعوا حتى تنقذوا أنفسكم » .

وجدف الجدافون بكل قوتهم، وأسرع القارب الخفيف عبر التيار وبرقت المجاديف فى ضوء النجوم ، ونظر كوك الى الوراء فوجد الزوارق تقترب منهم فخفق قلبه ، وسمع صيحات الهنود تعلو وتعلو وتجعله يضيق قبضته على المجداف .. وفى تلك اللحظة رنت فى أذنه كلمات الأدميرال وهو يقول : « عد بتلك الخرائط مهما كلفك هذا من ثمن » .

فحث الجدافين قائلا : « أسرعوا يا رجال ! ما زالت أمامنا فرصة كى ننتصر عليهم ، اننا على وشك أن نصل الى الشاطىء » .

وبذل الرجال محاولة بطولية أخيرة ، وارتطم القارب بقاع النهر فوثب كوك ورجاله الى الشاطىء وهربوا تحت ستار الغابة المظلمة .. وسمعوا صوت الهنود يرسون زوارقهم ويطلقون صيحات وحشية ، ثم يمطرونهم بوابل من أسهمهم .

وانطلق سهم مصوب الى كوك فمزق سترته ثم استقر فى احدى الأشجار .

وكان الحظ حليف الرجال البيض فنجحوا فى الفرار من الأهالى المهاجمين نجاحا كأنما هو المعجزة ، ووصلوا الى المعسكر الذى فيه قيادة الجنرال وولف ... وأخرج جيمس كوك من جيبه سجلا للملاحظات وقياسات الأعماق التى دونها وكان السجل سليما جافا ملفوفا فى حرير مدهون بالشحم .

وبعد ذلك بأيام عديدة ، وضعت خرائطه بعد أن استكملت أمام القادة الانجليز ولم يكن أى من سوندرز أو وولف أو حتى كوك نفسه يظن أن العملية تمت بدقة متناهية ، أو أن خرائط كوك سيستعملها ملاحو الأجيال التالية فى نهر سانت لورنس .

أما بقية القصة فهى تاريخ ··· فقد أبحرت أكثر من مائتى سفينة حربية من الأسطول الانجليزى ، عبر جنادل ترافرس الخطيرة دون أية اصابة وكانت المعركة التالية طويلة ودامية ، ولكن فى منتصف سبتمبر كان الجنرال وولف قد قطع سهول أبراهام وكانت مدينة كويبك قد سقطت ·

* * *

وأرسل السير تشارلز سوندرز فى طلب ضابط الملاحة ، وتلاشى الفارق فى الرتب بين الرجلين لفترة وجيزة ، فى حرارة تحية الأدميرال ·

وقال سوندرز برزانة : « يجب أن تعرف أيها الشاب أن نجاحنا فى التغلب على الأعداء يعود الى مجهوداتك أنت ، لأنك قمت بعمل رائع فى مواجهة خطر عظيم يا كوك » ·

وراوغ جيمس كوك ؛ لأنه لم يكن يغره الثناء بسهولة ، كما أنه كان يشعر أنه لم يقم الا بواجبه · فتمتم قائلا : « هناك أماكن فى التيمز يا سيدى فى خطورة سانت لورنس » ·

فاستطرد الآخر قائلا : « ولكنها ليس بها هنود وفرنسيون بباغتونك ··· أنت متواضع جدا يا عزيزى وهذا ليس من صالحك ، انتبه لما أقوله لك ·· اذا لم تتكلم وتعلن عما قمت به فلن تحصل على شكر السلاح البحرى » ·

وأجاب الآخر متعثرا : « أخشى يا سيدى أن أكون خائبا فى التحدث عن نفسى » ·

فقال الأدميرال : « اذن فسأتكلم أنا نيابة عنك ان الخدمة التى

أسديتها لانجلترا يجب أن يعرفها قادة السلاح البحرى ··· وأحب أن أضيف أنها لن تضيرك فى شىء » ·

« شكرا لك يا سيدى » ·

« آه وهناك شىء آخر ــ ستعود البمبروك الى انجلترا ، ولكن هناك حاجة ماسة الى خدماتك كصانع خرائط هنا فى كندا ، ولهذا فقد أمرت بتعيينك فى سفينة أمير الأسطول ، نور ثمبرلاند ، تحت قيادة لورد كولفيل » ·

وهذه ضربة حقة من ضربات الحظ ! لأن لورد كولفيل واحد من أقوى الرجال فى الأسطول الملكى ·

وتملك الفرح جيمس كوك لهذا الحظ السعيد ولم يستطع الا أن يتمتم بامتنانه وشكره ثم ينصرف ·



الفصل السادس

المغامرة الكبرى

وقف جيمس كوك فى نافذة مسكنه فى شادويل بالقرب من جسر لندن ونشق رائحة نهر التيمز ... ما أجمل العودة الى لندن بعد غياب أربعة أعوام فى برارى أمريكا .

لقد قدم طلبا لاعفائه من الخدمة فى البحرية ، ولكنه كان لطول المدة التى قضاها فى البحر يشعر بالأرض تموج وتهتز تحت قدميه وكأنها ظهر سفينة .

ودارت بخلد الشاب ـ لفترة قصيرة ـ جميع الأحداث التى مرت خلال السنوات التى كان فيها بعيدا عن انجلترا • لقد سلم الفرنسيون مقاطعاتهم فى كندا ••• وكتب لورد كولفيل خطابا حماسيا للأدميرالية (ادارة السلاح البحرى) يحثهم فيه على سرعة نشر خرائط كوك الملاحية ••• وادخر كوك فى المدة التى قضاها فى الخدمة ثلاثمائة جنيه استرلينى ، وهو مبلغ كبير ـ أرسل نصفه على الفور الى والديه المسنين فى جريت آيتون ••• وكان لديه من الأسباب ما يكفيه لكى يفخر بما حققه مساحا وصانع خرائط ، ولكنه مع هذا ابتعد عن النافذة فى ملل ••• ما قيمة العمل العظيم اذا لم يكن هناك شخص يشاركه فيه • ولما لم يكن قد حصل على براءة فى البحرية فقد كان الضباط يقبلونه بمضض ، فى حين كانت رتبته كقائد للاقلاع تحول بينه وبين البحارة العاديين ، ولذلك فقد شعر جيمس كوك بالوحدة بين رفاقه الا من صداقته لهيو بوليزر •

ودق الباب ، ربما كانت هذه صاحبة مسكنه مسز باتس المحبوبة التى كانت تسهر على راحته كأم رءوم •

فصاح قائلا : « ادخل » •

ولكن التى دخلت الغرفة لم تكن صاحبة البيت ، بل كانت ابنتها اليزابيث ، وخفق قلب الشاب حين رأى الفتاة الخجول ذات العينين السوداوين •

وقال : « لم أكن أتوقع أن تكونى أنت » •

فقالت الفتاة فى هدوء : « ان والدتى تشعر بوعكة ، وطلبت منى أن أغير مفارش غرفتك • وأنظفها » •

وبالرغم من أن جيمس كوك كان قد واجه أخطارا كثيرة بثبات

ورباطة جأش ـ الا أن هذه الفتاة النحيلة الرقيقة أربكته ، وجعلته يتلعثم وهو يقول : « انك فى غاية الكرم والعطف » ٠

ونظمت اليزابيت المناشف والمفارش فى صف أنيق ، ثم مرت بأصابعها على مجموعة من الكتب منسقة على المكتب ، وقالت وهى تفحص أحد أطراف أصابعها فى دهشة :

« ليس عليها غبار » ٠

فابتسم الرجل وفجأة شعر بالارتياح ، ثم أخبرها قائلا : « قلما تكون لكتبى فرصة تجمع فيها الغبار ، فهى تستعمل دائما » ٠

ونظرت الفتاة باعجاب وانعام الى صف الخرائط المثبتة على الحائط ثم سألته فى دهشة : « أهذا من صنعك أنت ؟ »

فطأطأ الآخر رأسه : « ستنشرها الأدميرالية (ادارة السلاح البحرى) قريبا » ولأول مرة شعر جيمس كوك بالفخر لما قام به وحده ، كما أن اعجاب اليزابيث الحار أثار فى نفسه شيئا دفينا باردا ، وأذابه ذوبان الجليد فى فصل الربيع ٠

وصاحت الفتاة : « آه يالعظمة أن تقوم بمثل هذه الأشياء !! لابد أننا جميعا نبدو فى نظرك بلداء ٠ خبرنى ٠٠ أحقا ما يقال عن أن تلك البرارى الكندية رائعة ؟ »

ولمعت أسنان الشاب البيضاء ، وامتلأ صوته بالتحمس وهو يقول : « انها لبلاد فسيحة تلك البـــلاد ! يمكنك أن تسمعى خوار الثيران حين تسقط أولى دفعات الجليد ، وتخرج الدببة فى وضح النهار باحثة عن دواجن المستوطنين ، وتنمو الأشجار كثيفة جـدا لدرجة أن كائنا من كان لا يستطيع رؤية السماء الا اذا هوت الفئوس

على الأشجار فاقتلعتها » • وسكت جيمس كوك ، وهو يلهث ••• لقد كانت هذه خطبة كبيرة بالنسبة له •

ــ « هل ستعود قريبا الى كندا ؟ » وبدا لسؤالها معنى أكبر من الكلمات نفسها • أيمكن أن يكون معناه أنها لا تريده أن يرحل ؟

فهز جيمس كوك رأسه ، ثم استدار نحو النافذة ولمعت أمام نظره خيالات بعيدة ــ ثم قال وكأنه يفكر بصوت مرتفع ــ : « مازالت هناك أماكن أخرى كثيرة يجب أن تكتشف » •

وأجابت الفتاة فى أسى : « لقد سمعت أن بعض الرجال مثل السفن التى يبحرون بها ، لا يرضون أبدا بالبقاء فى الوطن لمدة طويلة بل يبحثون دائما عن آفاق جديدة » •

فاعترف الآخر بقوله : « ربما كنت واحدا من هؤلاء ، ولكن تذكرى أن كل سفينة لابد أن تعود الى مرساها النهائى مهما طالت رحلتها » •

ــ « هذا صحيح ، ولكن كم يشعر بالوحدة والوحشة أولئك الذين ينتظرون عودة السفن ! »

ــ « هذه حياة المرأة التى تتزوج بحارا يا اليزابيث » •

وبدا اسمها وكأنه ينطلق من بين شفتيه طبيعيا • وهنا جاء دور الفتاة فى الارتباك ، واحمرت وجنتاها ، وتمتمت : « يجب أن أنصرف » •

ولما استدارت أمسك الرجل بيديها ، وشعر بالنبض الرقيق فى عروقها فاستجاب له نبضه • ثم رجاها قائلا : « سوف أراك مرة



ثانية قريبا . أرجوك — » ولهثت اليزابيث قائلة : « ربما ... نعم ! نعم ، أكيدا ! » : ثم استلت يديها من يديه وأسرعت نحو الباب المفتوح .

* * *

بعد مرور شهر ، فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٧٦٢ دقت أجراس الأفراح فى كنيسة الأبرشيه فى ليتل باركنج معلنة زواج جيمس كوك ومحبوبته اليزابيث ، واشتريا بيتا فى طريق مايل اند فى شرق لندن بحركتها وضوضائها ، وبدا أن أيام الملاحة قد انتهت تماما من حياة الزوج الشاب .

ولكن هذه المسألة لم تستمر طويلا ؛ فقد عين صديقه القديم السير هيو بوليزر ، حاكما لنيوفوندلاند ، ولابرادور ، وكان لابد

من رسم خريطة للمستعمرة غير المعروفة وسواحلها المغيمة بالضباب وطبعا أرسل بوليز فى طلب جيمس كوك ٠

وهكذا ـ بعد أربعة أشهر فقط على زواجه ، وجد الشاب نفسه يمشى مرة أخرى على ظهر مركب بينما جلست اليزابيث وحيدة فى البيت تتعلم الصبر الذى تعرفه كل امرأة تتزوج بحارا ٠

أما جيمس كوك فكانت لخبراته فى نيوفوندلاند نتائج باهرة فقد حدث كسوف فى الشمس بعد وصوله بمدة قصيرة ٠٠٠ فكتب تقريرا مفصلا عن هذه الظاهرة الطبيعية ورفعه الى الجمعية الملكية فى لندن ٠٠٠ ودون فيه ملاحظاته بمهارة فائقة لدرجة أنه بهر العلماء ٠ وسألوا : من هو جيمس كوك هذا ؟ وما هى دراسته العلمية ؟ وزادت دهشتهم حين اكتشفوا الحقائق ٠٠٠ كيف حدث أن مثل هذا الرجل ـ بعد أن قضى أحد عشر عاما فى البحرية الملكية ـ لم يحصل على براءة ضابط ؟ يجب عمل شيء حتى يحصل عليها ؟

ولكن البعثة فى نيوفوندلاند استغرقت خمسة أعوام طوال ، وقارب جيمس كوك سنه الأربعين ، فرسخ فى ذهنه اعتقاد بأنه لن يصبح ضابطا ٠ لأن البراءات لا تعطى الا لأبناء السادة النبلاء ذوى النفوذ ، لا لأبناء الفلاحين فى انجلترا ٠ ولأول مرة شعر بالمرارة وهو يفكر فى أنه كان من الأصوب ألا يترك جريت آيتون ٠٠٠ وشعر بأن نجمه الذى يجلب له الحظ بدأ يأفل ويختفى ٠

وقبل ذلك ببضع سنين كان هناك عالم فلكى انجليزى يدعى « هيلى » تنبأ بأن النجم المذنب الذى يحمل اسمه سيكون مرئيا فى ١٧٥٩ ٠٠ ودهش الجميع حين ظهر النجم فعلا فى موعده ٠ وعلى هذا الأســـــاس حين أكد « هيلى » أن كوكب الزهرة سيمر بين الأرض والشمس فى ١٧٦٩ لم يشك أحد فى هذه النبوءة . واذا أمكن مراقبة

مرور الزهرة من أماكن مختلفة وعديدة بالكرة الأرضية فى آن واحد فانه يمكن تقدير بعد الشمس عن الأرض بدقة٠٠٠وهذا يحل مشكلة الملاح الخاصه بقياس خطوط الطول وهى مشكلة كانت متعبة جدا حتى ذلك الوقت ٠

وأخيرا عاد جيمس كوك الى انجلترا فى نوفمبر ١٧٦٧ ، وفى نفس هذا الشهر بدأت الجمعية الملكية تضع الخطط لمراقبة الكسوف الذى تنبأ « هيلى » بأنه سيحدث بعد ذلك بعامين ٠ وكانت الخطة هى ارسال بعثتين الى بحار الجنوب وبعثتين الى أوروبا وبعثتين الى شمال كندا ٠٠٠ واختارت الجمعية رجلا اسكتلنديا يدعى الكسندر دالريمبل كى يرأس البعثة الى المحيط الهادى ٠٠٠ وهذا الرجل هو الذى كان يعتقد فى وجـــود قارة جنوبيـــة عظيمة بها حـــوالى ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمه ٠

وطلب من جيمس كوك أن يختـــار سفينة تصـــلح لمثل ذلك المشروع ، وكان مخلصا لحبه الأول ، فاختار احدى ناقلات الفحم التى بناها هويتبى فى بحار الشمال ، وهى سفينة قوية حمولتها ٣٧٠ طنا واسمها « الانديفور » ٠٠٠ وكان كوك مستعدا لأن يضحى بأى شىء كى يبحر هـــذه البعثة ، ولكن كان دالريمبل أخا لأحد اللوردات بالاضافة الى كونه زميلا فى الجمعية الملكية ٠٠٠

غير أن الذى كان يزعج جيمس كوك هو أن ذلك الرجل لم يركب البحر قط رغم كونه بالطبع عالما محترما ، والواقع أن طرق الأدميرالية (ادارة السلاح البحرى) يصعب ادراكها ٠

وفى هـــذه اللحظة قام الكسندر دالريمبل بلعبة كانت من صالح جيمس كوك اذ لم يرض بكونه قائدا لبعثة علمية وانما طلب رتبة عسكرية أيضا فى البحرية الملكية ٠٠٠ ولكن أقدم لورد فى

الأدميرالية (السلاح البحرى) سير ادوارد هوك ثار وغضب لأن «الانديفور» اشتريت بأموال الشعب وامتلكتها البحرية ٠٠٠ ولذلك أعلن سير ادوارد أنه لن يقود شخص مدنى سفينة ملكية ٠

وأصر دالريمبل على موقفه ٠ فاما أن يكون له كل شيء ، واما ألا يكون له شيء على الاطلاق ٠٠٠ وبدت الخطة وكأنها ستنهار ٠٠٠ وكانت الجمعية الملكية فى حالة رعب شديد لأن مرور الزهراء لم يبق عليه الا سنة أو أكثر قليلا ٠ من ذا الذى يستطيع أن يقود مثل هذه البعثة فى بحار الجنوب ؟ وفجأة تذكر أحد كبار العلماء تقرير جيمس كوك الرائع عن الكسوف فى نيوفوندلاند ٠

هذا هو الرجل ! وهنا وثب سير هيو بوليزر فورا كى يظهر بطولة صديقه وكذلك فعل لورد كولفيل ٠

وهكذا تقرر الأمر ، وتساءل الجميع : لماذا لم يفكروا فى كوك فى بادىء الأمر ؟ اذ ليس بين جميع المحنكين فى البحرية شخص له مثل ما لجيمس كوك من تجارب ومعلومات ٠

وكانت هذه بالنسبة لجيمس كوك واليزابيث احدى المعجزات ، فكيف يتولى ابن فلاح من يوركشير ـ تخطوه مرارا فى الترقية ـ أعظم قيادة فى انجلترا ٠٠٠ وتذكر كوك أيام كده وكفاحه المريرة الطويلة التى قضاها كى يصل الى هذه اللحظة ولكنه فى ساعة النصر كان متواضعا ٠

ولم تسمح اليزابيث لنفسها بالتفكير فى الأخطار التى كانت تنتظر زوجها ، لأنها لاحظت فرحته الكبرى حين تسلم براءته كملازم، ولا ينبغى أن تنطفىء هذه الفرحة أبدا ٠٠٠ كم كان أنيقا فى هذا الزى العسكرى الجديد !!

وهمست قائلة : « كم أنا فخورة بك ، ولكنى سأكون فى غاية السعادة حين أعرف أن سفينتك عائدة فى طريقها الى الوطن » ٠

وحنى الرجل رأســـه على رأســـها وقال : « لا تخافى على ياعزيزتى اليزابيث ، فلابد أنك تعرفين أنى ولدت سعيد الحظ ! »

ـ « وأنا ربطت نفسى بهذه السعادة يا زوجى » ٠ وابتسمت بشجاعة وهى تدير رأسها بعيدا حتى لا يرى دموعها ٠

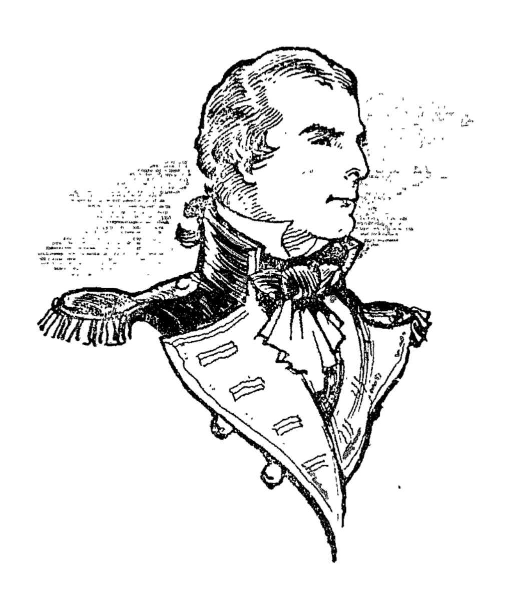
وعانقها الرجل برقة وقال : « أتريدين أن أبقى وأترك البعثة ؟»

وخرجت اجابة اليزابيث بصوت خافت ولكنه صوت الواثق من نفســـه : « كلا ولو أعطيت العـــالم كله ؟ فليرعك الله يا أعز من لى وليعدك الى سالما » ٠

* * *

وكانت السفينة «الانديفور» راسية فى دبفورد فى نهر التيمز ، ولم تكن تشبه سفن الملك على الاطلاق رغم أن علم انجلترا كان يرفرف عليها ، وكان طولها ثمانيا وتسعين قدما وعرضها تسعا وعشرين ، وجعلتها مقدمتها العالية ومؤخرتها المربعة المرتفعة تبدو على حقيقتها : سفينة نقل بنيت كى تحمل شحنة عبر أى بحر كان ٠٠٠ وعرف جيمس كوك قدرها ٠٠٠ اذ لا توجد سفينة تصلح لهذا الغرض أكثر مما تصلح سفينة من سفن الشمال ٠

وما دام الملك يبارك هذه البعثة فلن يدخر شيئا فى ســبيل اكمالها وتجهيزها على خير وجه ، وموّنت السفينة «الانديفور» بمؤونة تكفيها عامين وسلحت بمدافع قصيرة ومتحركة ، وملئت مخـازنها بالأشرع والسوارى والحبال والأخشاب الإحتياطية ٠ كما كانت هناك



مجموعة كبيرة من الحلى الزهيدة كى يتجروا بها مع أهل القبائل المتأخرة ... وكان « طاقم » الضباط والرجال اثنين وسبعين شخصا واثنى عشر بحارا احتياطيا ، وانضم الى البعثة ثلاثة علماء : تشارلز جرين ، عالم فلكى قدير ، وسير جوزيف بانكس ، أرستقراطى شاب غنى بنى لنفسه شهرة فى علم النبات ، وعالم سويدى من علماء التاريخ الطبيعى يدعى الدكتور سولاندر ، وعمل جيمس كوك بجد ومثابرة ، ولم يغب شىء عن نظره الحاد الثاقب ، وبذل هو ورجاله قصارى جهدهم ، ولكنهم لم يستعدوا للرحلة الا فى نهاية الصيف ،



واكتظ المرسى بالمتفرجين والمودعين .

وودع زوجته الوداع الأخير · ما أكثر الأحداث التى ستمر به قبل أن يحتضن اليزابيث مرة ثانية !! »

واكتظ مرسى بليموث بالمتفرجين ورايات الاحتفـــال ، وبكت الزوجات والحبيبات ، حين رأين رجالهن يبدءون رحلتهم متجهين الى المجهول ، وتحرك نسيم جنوبى شرقى عبر الماء حين فردت الأشرع واحدا بعد الآخر ورفعت المراسى وغنى البحارة وهم يعدون السفينة للرحيل وســـمع صوت هسهسة الرذاذ الذى تقذفه السفينة وهى تشق طريقها نحـــو الجنـــوب بادئة مغامرتها الكبرى ، والنوارس (طيور البحر) تصرخ وهى تحلق فوقها ···

كان ذلك يوم ٢٦ من أغسطس سنة ١٧٦٨ ·



الفصل الخامس

الملازم كوك

وبعد ثمانية عشر يوما رست السفينة الأنديفور بالقرب من ماديرا رغم أنها كانت تحمل فوق طاقتها ... وهنا ابتلع البحر ضحيته الأولى ؛ اذ بينما كان البحارة يلقون بمرساهم اذا بمساعد قائد الاقلاع يشتبك فى الحبل فيسحبه من المرساة الى البحر ... وغرق الرجل قبل أن يتمكن أحد من انقاذه ، ورأى البحارة الذين يعتقدون فى الخرافات أن هذا فأل سيىء وقالوا ان الأنديفور لن ترى تلال انجلترا الخضراء مرة ثانية .

ولكن ما ان حل منتصف نوفمبر حتى نسى البحارة هذا الاعتقاد المظلم الكئيب ، وعبرت السفينة ريو دى جانيرو وأسرعت فى طريقها نحو الجنوب واختيرت جزيرة تاهيتى ، فى المحيط الهادى ، كأصلح مكان لمراقبة مرور (فينوس) الزهرة ، وكانت السماء تظل صحوا فى هذه الجزيرة تسعة أشهر من السنة • ولكن كان عليهم أن يمروا أولا بكيب هورن ، وأن يقضوا أسابيع طويلة قبل أن يصلوا الى المحيط الهادى • وواجه جيمس كوك كل شىء بثقة تامة ، كان يقود سفينة ممتازة ببحارة ممتازين ••• وأثبت العلماء ـ وخصوصا بانكس ـ أنهم مسافرون ممتازون ، غير أنه كانت تمر به لحظات لا يكاد فيها يصدق أنه يقود مشروعا من أعظم مشروعات بلده ••• اذ لم يكن لها مثيل منذ أبحر كولمبس ، من حوالى ثلاثمائة سنة غربا ليكتشف عالما جديدا •

اليابسة ! اليابسة

جعلت هذه الصيحة الحماسية جميع الرجال يصعدون الى ظهر السفينة وصعدت جماعات البحارة الى الحبال ، ونظر كوك بشغف من خلال منظاره المقرب ، فمن الجانب الأيمن للسفينة وجد اليابسة بعيدة هناك ـ كئيبة يغطيها الجليد ـ وترتفع فى جوها أعمدة دخان البراكين، أما السماء فكانت مكتئبة ، وكانت أطراف السحب المنخفضة ملونة بوهج نارى •• وانضم الدكتور سولاندر وجوزيف بانكس الى القبطان فى غرفة القيادة •

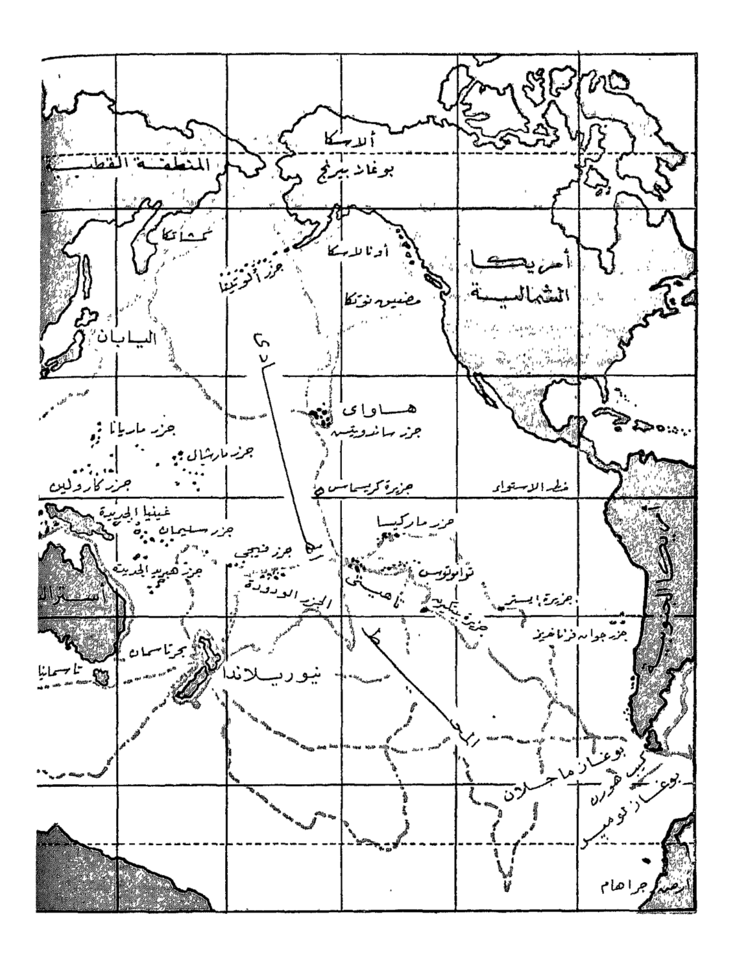
وقال كوك : « ها هى ذى يا أيها السادة « تيرا دل فويجو •• أرض النار • وتماما فى المكان الذى يجب أن تكون فيه » •

فصاح بانكس قائلا : « أقسم بربي ان ماجلان لم يكن ليفكر في اسم خير من هذا ، انها تبدو وكأنها مقر الشيطان نفسه » ٠

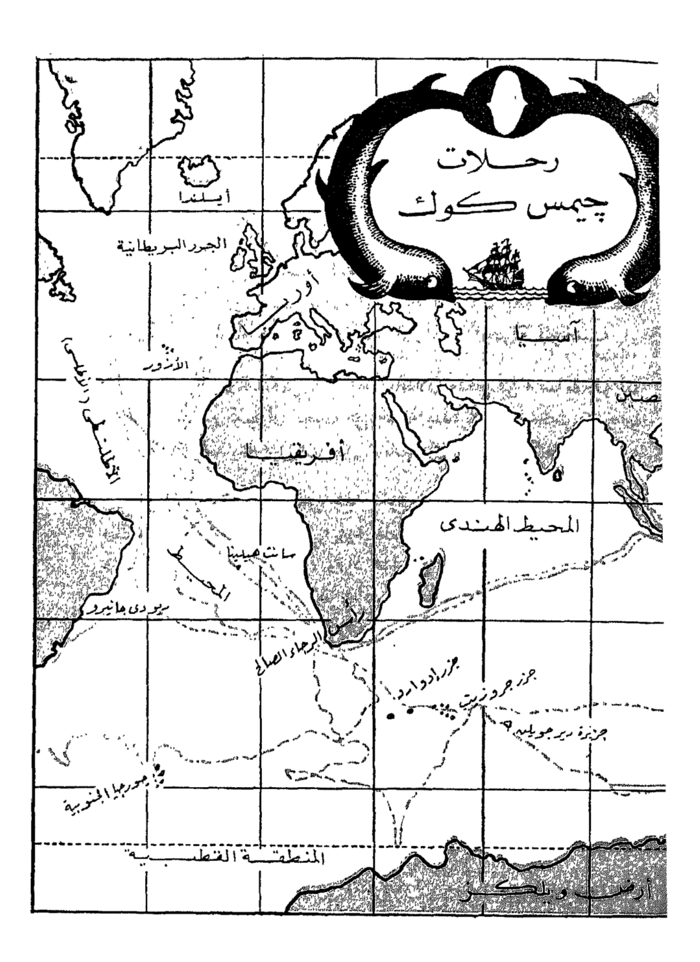
ووافق الجميع على أن أرض النار شاطىء مخيف خطير ، وكانت هناك جزيرة صخرية في شرق شبه الجزيرة ، وبين هاتين الجزيرتين يوجد الممر المعروف باسم (بوغاز لومير) وكان على السفينة أن تمر في هـــذا الممر الخطير حتى تسير حول كيب هورن ، وزاد البرد ، وتراكم الجليد على الحبال والقلاع ، في حين كانت الأنديفور تبحر عبر الســـاحل الكئيب ، وهي لا تزال متمســكة بكل خرقة ممكنة من الشراع ٠ ولما زاد الضغط واشتد ، ترنحت السفينة وتأرجحت وأزبد الماء وماج في بياض حـــول نصفها الغائص في الماء ، المحجوب عن الريح ٠

ووقف جيمس كوك في ركن في مؤخر سطح السفينة وهـــو يلتف في عباءته وأخذ يقيس ويحسب مسار السفينة ، وصمم على أن يمسك بكل شراع ما استطاع ٠ ولما دخلت الأنديفور بوغاز لومير اختلت من كل جانب ، وحطمت الرياح البوصلة ، وهبت أمواج البحر الهائلة على السفينة ترتطم بها وتتكسر عليها ٠ ولكن جيمس كوك كان قد تعلم فن الملاحة في مثل هذه السفينة في مياه بحر الشمال البعيدة الغادرة ٠ وكانت صيحاته الثابتة ووجهه الهادىء الجموح تعيد الثقة الى أولئك المترددين وتدخـــل القوة الى قلوب الضعاف ، من ذا الذي يخاف ومعه مثل هذا القائد ؟

واستمر المرور في بوغاز لومير طيلة أربعة أيام مليئة بالعواصف والزوابع جاوزت كل الحدود المعروفة للناس من قبل ، ومع كل هذا استطاع جيمس كوك أن يجد وقتا كافيا كي يرسم خريطة للساحل ويسجل ملاحظاته بدقة متناهية ٠



ألاسكا
بوغاز بيرنج
المنطقة القطبية
كمشاتكا
أونالاسكا
مضيق نوتكا
أمريكا
الشمالية
اليابان
هاواى
جزر ساندويتش
جزر ماريانا
جزر مارشال
جزر كارولين
جزيرة كريسماس
خط الاستواء
غينيا الجديدة
جزر سليمان
جزر ماركيسا
جزر فيجي
جزر هبريد الجديدة
تواموتوس
تاهيتي
الجزر الودودة
جزيرة بتكيرن
جزيرة إيستر
جزر جوان فرنانديز
بحر تاسمان
تاسمانيا
نيوزيلاندا
بوغاز ماجلان
كيب هورن
بوغاز لومير
أرض جراهام


رحلات
چيمس كوك
أيسلندا
الجزر البريطانية
أوربا
آسيا
الأزور
المحيط الأطلسى
أفريقيا
المحيط الهندى
سانت هيلينا
المحيط
ريودى جانيرو
رأس الرجاء الصالح
جزر ادوارد
جزر جروزيت
جزيرة دير جوبليه
جورجيا الجنوبية
المنطقة القطبية
أرض ويلكز

وبدأت الحاجة الى الماء العذب تلح عليهم ، ولهذا رست السفينة فى خليج مستور ، وارسلت البراميل الى الشاطىء كى تملأ بالماء العذب ، وصمم العلماء وعلى رأسهم الدكتور سولاندر أن يكتشفوا جبـــلا كانوا يرونه عن بعد وأن يعودوا بكل نبات أو حيوان قد يجدونه هناك ، وتكونت جماعة المكتشفين من عشرة رجال ــ وهم بمثابة العمود الفقرى لبعثة الجمعية الملكية • وراقبهم كوك بقلق وهم يعدون العدة ، لأن السماء بدأت تمطر جليدا ، ولم يكن أحد يستطيع أن يتكهن بالأخطار الكامنة فى هذه الأراضى المجهولة الوحشية •

وقال كوك لبانكس : «سآمر باطلاق مدفع فى الساعة الرابعة من بعد الظهر ويجب أن تجيب على بطلقة بندقية اذا سمحت ، ويجب أن تعود الى السفينة قبل أن يحل الظلام بأى حال من الأحوال »•

وأكد جوزيف بانكس هذا لكوك قائلا : « ثق من هذا أيها الملازم » ولكن برقت فى عينيه نظرة غامضة بعيدة كالتى تبدو عادة فى عينى العالم الحق ، وزاد هذا من قلق جيمس كوك ، لو أن هناك رجلا عاقلا واحدا بين هؤلاء السادة العلماء ! ولكن الجماعة العلمية لم تكن تخضع لسلطة كوك ، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا سوى أن يتبرم فى صمت ويراقبهم وهو يرحلون •

وأخذت العاصـــفة فى التزايد طوال فتـــرة العصر وسرعان ما أصبحت الرؤية مستحيلة الا لمسافة قصيرة جدا ، وصرصرت الريح فى الحبال وازداد قلق القبطان ساعة بعد ساعة ؛ حتى كانت الساعة الرابعة فأمر باطلاق المدفع ولكن ما من مجيب ، فأطلقت طلقة ثانية ، ثم ثالثة ولكن لم تقابل الا بنفس السكون المشئوم •

وتمتم رئيس النوتية : « لقد هلكوا ، هلكوا جميعا تجمدوا مثل هذا المرسى ، ولا شىء غير هذا » •

وأسكت كوك المتحدث فى غضب ، ولكن كلماته وجدت لهـــا صدى فى قلبه ٠

وشارك مستر هيكس ـ الضابط الأول ـ رئيسه فى قلقه ، واقترح قائلا : « هل أؤلف جماعة للبحث عنهم يا سيدى ما دمنا بالنهار ؟ »

« لن يستمر النهار طويلا ! سيحل الظلام قبل أن تقطعوا ميلا واحدا » وكان صوت كوك حادا مليئا بالغضب ، والثورة على نفسه ٠ اذا هلكت هذه الجماعة من العلماء فلن يلوم الا نفسه ٠ اذ كان عليــه أن يفرض سلطته على العلماء بوصفه قبطان السفينة سواء أكان هذا صوابا أم خطأ ٠ هذه مشيئة الله ، ولكنها لن تحدث ثانية ٠

وأضاف بحزن : « لسنا نعرف الاتجاه الذى يتجولون فيه ، وسيكون من الحمق المخاطرة بأرواح أخرى فى مثل هذه العواصف »٠

وافق هيكس على مضض ، وظل الرجلان متيقظين طوال الليل ، بينما ظل الوهج الأحمر على مقدمة السفينة ، وعند الفجر ، وعلى بعد جهة الشرق سمعت طلقة وحيـــدة ضعيفة وسط الريح العاصفة المدوية ٠

« انهم أحياء » انفجرت هذه الصيحة من أفواه الكثيرين ، ولكن لم يعد الى السفينة الا ثمانية رجال بدلا من عشرة أقرب الى الموت منهم الى الحياة ٠ وزادت القصة التى قصها بانكس من عزم كوك وتصميمه على أن يفرض سلطته على هؤلاء الخياليين ٠

ففى طريقهم الى الجبل البعيد أخطأ العلماء ودخلوا فى مستنقع نصف متجمد ، وهناك اكتسحتهم عاصفة ثلجية عنيفة ، واكتشفوا

بعض الأهالى متزاحمين فى أقذر مأوى عرفوه فى حياتهم ، ولكن هؤلاء البؤساء طردوهم بعنف ، وبعد ذلك بقليل انتابت أحد العلماء نوبة صرع ، وظن الجميع أنه لا محالة هالك (وعلى الرغم من هذا فقد شفى بعد ذلك) وأصر اثنان من رجال بانكس على النوم فى الجليد ولم يمنعهما شىء عن تنفيذ رغبتهما ، لقد فضلا الموت على الاستمرار فى هــذا النضال • أما الرجال الثمانية الآخرون فشقوا طريقهم بصعوبة طوال الليل محاولين أن يحتفظوا فى أجسامهم المجهدة المتجمدة بشىء من الدفء ، وعند الفجر اكتشفوا الوهج الأحمر الذى على ظهر الأنديفر واكتشفوا أنهم كانوا يسيرون فى دائرة واسعة ولو أنهم استمروا على هذه الحال ساعة واحدة بعد ذلك لهلكوا جميعا ، ولكن بالرغم من كل هذا نجح جوزيف بانكس (العالم الحق) فى جمع نوع من الكرفس البرى وفى قتل طائر أرضى لا يعرف نوعه •

وفى ارتياح كبير أعطى جيمس كوك الأوامر برفع المرسى ، كان سعيدا لأنه سيترك هذا المكان المحزن ، وفى الثانى والعشرين من يناير ، أى بعد حوالى خمسة أشهر من ترك انجلترا خرجت الأنديفور من تيرا دل فويجو ـ أرض النار والجليد •

وبعد ذلك بستة أيام كانت السفينة قد تركت كيب هورن ودخلت فى المحيط الهادى ، وبهذا حطمت الأرقام القياسية مرة ثانية، وارتفعت الروح المعنوية للبحارة نتيجة لتغيير الجو ، لقد ذهب عالم الرياح الثلجية ، والأمواج الهائلة ، وبدأت السفينة تسير فى اتجاه الشمال الغربى عبر بحار فى غاية الهدوء ، وأخذت قطعان الدرافيل تقفز وتغطس حول مقدمة السفينة ، على حين يظهر حوت من وقت لآخر على سطح الماء ، وينفث الماء عاليا فى الهواء • وكانت السماء مليئة بطيور البحر المختلفة ، وحلق فوقها جميعا « القادوس » ملك طيور البحر وأخذ يطير فى سهولة ويسر •

وفى المساء علق الرجال أسرتهم على ظهر السفينة ، وقد أخذت الريح تصفر من خلال الجبال ، وتهدئهم وتجعلهم ينامون وكأنها أغنية ما زالت لها ذكراها منذ الطفولة،وفى بعض الأحيان بينما كان جيمس كوك يختبر مكان سفينته بوساطة نجوم المناطق الاستوائية البراقة كان يفكر فى اليزابيث التى تركها تسهر وحيدة ٠٠ وعندئذ كان يتنهد ويحاول أن يبعد هذه الأفكار ، ويفكر فى أشياء أخرى كى يستريح ؛ وتساءل كوك : ما هو شكل تاهيتى ٠٠٠ كان الكابتن واليس قبطان (الدولفين) سفينة البحرية الملكية وقد وصل اليها قبل ذلك ببضع سنين وتغنى بجمال هـــذه الجزيرة وأناقة أهلها ، ولكن كوك كان يعرف جيدا أن مثل هذا المكان قد ينمى روح العصيان والتمرد فى نفوس الرجال الذين سئموا البحر وملوه ٠

* * *

ذهب الصباح وأتى المساء ، وذهب فبراير وجاء مارس ، دون أن يحدث تغيير يذكر ، وفى الخامس من ابريل ـ فى نفس الوقت الذى بدت فيـــه الرحلة وكأنها لن تنتهى رنت فى الجو صيحة المراقبين الأخاذة وتجمع العلماء حول القبطان بينما تسلق البحارة الحبال الى القلاع ، ولما أشرقت الشمس ، بدأت الجزيرة تظهر بصورة أوضح ، مرتفعات خضراء عالية ، ووديان مظللة وشلالات تعكس أشعة الشمس وتتحول الى أقواس قزح ٠٠٠ لقد بدت فى أعين الرجال الذين على ظهر السفينة وكأنها حلم من الأحلام ٠ لدرجة أنهم توقعوا أن يتبدد هذا الخيال فى أى لحظة ويختفى من الوجود ٠

« نعم ٠٠ انها أرض جميـــلة » قالها جوزيف بانكس مؤكدا ما سبق أن قاله واليس ٠ وأضاف فى مكر : « لقد صدق واليس فى هذا ولو أنه أخطأ كصانع خرائط » ٠

وأخفى جيمس كوك ، ابتسامته ، وهو يعلم تصحيحا ثالثا فى الخريطة :

وهمهم مستر هيكس قائلا : « فى الحقيقة انها جميلة فعلا ولكن تلك التلال الخضراء تبدو وكأنها صنعت للفارين والمرتدين بخاصة ! فى مثل هذا المكان سيكون من الصعب السيطرة على الرجال ومنعهم من أحداث المشاغبات » •

وكانت نفس هذه الفكرة أيضا تضايق كوك وتزعجه ، ولكنه ظل صامتا ، لقد صمم على أن يجعل رجاله مشغولين بصفة مستمرة سواء فى البر أو فى البحر حتى لا يكون لديهم من الوقت ما يسمح لهم بأحداث الشغب ••• وبدأت تظهر الآن غابات أشـــجار جوز الهند التى تظلل أكواخ القش وتحجب عنها وهج الشمس المحرقة ، وكانت هناك مجموعة من السحب التى تنعكس فى الهور الذى فى أسفل قمم الجبال المقوسة ، وهكذا بدت الجزيرة الجميلة وكأنها تقع بين سماءين •

جلجل صوت كوك : « استعد لاطلاق المدافع للتحية ! »

واستعد رجل المدفع خلف مدفعه المحورى ، ودوى المدفع ، وقذف الدخان بقوة ، وسمع صدى الصوت يرعد عائدا من اليابسة•

وبعد ذلك بدأت أشباح صغيرة كالنمل تندفع خارجة من البيوت المغطاة بالقش ، واندفعت أساطيل من الزوارق السريعة الى الماء ، وبدت الجزيرة وكأنها خرجت عن بكرة أبيها بينما مرقت الأنديفور بحذر تجاه المرسى ، فى خليج ماتافاى ، ونفدت الريح من الأشرع وتشقق الخيش واختبط بالساريات ، وسمع صوت جلجلة ، بينما

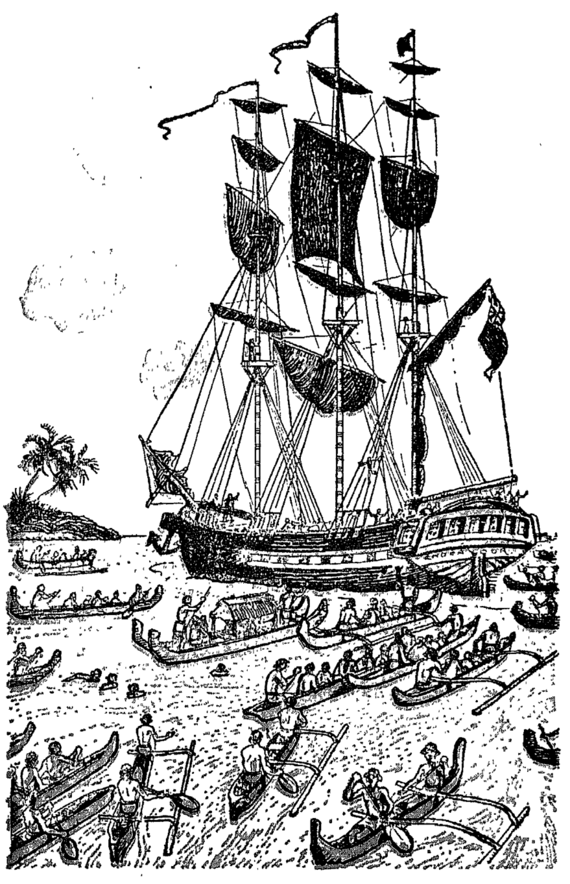
كانت سلسلة المرسى تندفع خارجة من الثقب المخصص وتأرجحت الأنديفور مع حركة المد ثم هدأت وسكنت فى مكانها ٠

ثم امتلأ الخليج بالزوارق وتوهجت الشمس منعكسة على المجاديف المبتلة والأجسام النحاسية التى تتراقص على أنغام أغنية بدائية ، وسبح السباحون الذين تكسوهم الأزهار فى سهولة ، ومرونة ، وكان فى مقدمة الزوارق ، زورق مزدوج تغطيه حصيرة وسرعان ما وصل الى مؤخرة السفينة ٠

فقال هيكس : « ان هذا مليكهم ولا شىء غير هذا ٠٠٠ يا للهول، ان هذا الزورق يبدو وكأنه « الصندل » الملكى نفسه ! »

وثبت هذا فعلا ، وكان هناك بولينى مسن ونصف عار جالسا على منبر مرتفع عبر الزورقين ، كما كان هناك زورق آخر يحمل الملكة ومرافقيها ٠٠٠ ورفعت الأنديفور أعلامها ودوت فى الجو أربع طلقات مدفعية تحية للملك ٠

وفى رشاقة مدهشة لشخص فى مثل سنه ، تسلق الملك توتاها السلم المصنوع من الحبال ، ودلى رجليه من فوق حاجز السفينة ، ثم وقف على ظهر السفينة يبتسم ، رجل يزيد طوله على المتوسط قليلا ، يرتدى « رهاطا » من التابا البيضاء ، وتسطع فوق صدره البرنزى العارى قلادة من أسنان كلب البحر ، وكان يشعر بفخر كبير ونبل عظيم لأنه يرتدى هذه التركة التى ترجع الى أربعين جيلا من الزعماء والأكابر ، ودهش كوك حين أمسكه توتاها من كتفيه وحك أنفه بأنفه ليحييه ، ثم أصدر توتاها أمره الى أحد تابعيه فاندفع صاعدا وحمل معه صندوقا صغيرا مصنوعا من القرع وبصق الملك فى الصندوق مراعيا ألا يفقد نقطة واحدة من البصاق ، ثم غطى التابع الصندوق باحترام واحتفظ به ورعاه ، فان أى ملك له أعداء



واندفعت أساطيل من الزوارق السريعة تتجه نحو السفينة

يعرفهم أو لا يعرفهم بشريين أو خرافيين لا يخاطر ببصاقه أو بقلامات أظافره حتى لا تقع فى أيدى أعدائه الذين يبيتون له نوايا سيئة ٠

ولما انتهى هذا وضع الملك يده على صدره العارى وأعلن : « أنا توتاها ٠٠٠ أنا ملك تاهيتى » ٠

ما من شك فى أن هذه الجملة استنفدت من الكابتن واليس كمية كبيرة من الكلمات الانجليزية ٠

ومنذ تلك اللحظة حتى يوم الرحيل بعد ذلك بثلاثة أشهر سيتطور جيمس كوك ورجاله بفن لغة الاشارات ٠٠٠ وفى نفس الوقت ملت الملكة انتظار اذن مليكها فرفعت جسمها السمين وصعدت السلم المصنوع من الحبال ، وبعد أن وقفت على ظهر السفينة أصرت هى الأخرى على أن تحك أنفها بأنف كوك وهى تبتسم بسعادة ، وفشل كوك فى منع هذا ، وكانت الأزهار تكسو شعر الملكة الأسود المتدلى كالعباءة حتى ركبتيها ٠٠٠ وفى هذه الأثناء كانت وصيفتان من وصيفات الملكة نحاسيتا اللون تلوحان بالمراوح المجدولة فوق رأسها على حين كان كل فرد يشعر بجو ودى طيب ٠

وقالت الملكة مبتسمة : « أيا أورانا ، أيا أورانا أوتو ! » ولا يمكن أن يفهم لهذه الكلمات معنى سوى « مرحبا » ٠

وسمع صوت مستر هيكس وهو يهمس لرئيس النوتية : « هل تتخيل » هؤلاء القوم من أكلة لحوم البشر » ٠

فأجاب رئيس النوتية : « لا يمكن القول بهذا ، ولكن أسنانهم على أى حال تسمح لهم به » ٠

وسحب البولينيون كميات كبيرة من السمك المجفف ، والموز ،

والخبز المصنوع من الفاكهة الى ظهر السفينة ؛ اذ أن الزوار الملكيين لم يأتوا الى السفينة بأيديهم فارغة ٠ فأخرج جيمس كوك زجاجة من أفخر أنواع النبيذ الذى عنده ، وفطيرة فواكه كانت اليزابيث قد أعدتها له ووضعتها بحرص فى علبة من الصفيح وتبودلت المنعشات، والتهم الملك والملكة الفطيرة الجافة ، عــلى حين اغرورقت أعينهما بالدموع من جراء شربهما للنبيذ ، ولكنهما قاوما بنزعة ملكية حتى يحتفظا بالوقار ولا يسيئا الى مضيفيهما ، أما كوك والعلمــاء فقد التهموا برجولة ما أمكنهم من السمك المجفف ، كريه الرائحة ، وبهذا بنيت الصداقة بينهم ، ولما استأذن توتاها وملكته فى النهاية كانت ملامحهما تنم عن أن تاهيتى وكل امكانياتها قد أصبحت تحت أمر الانجليز وبهذا نجحت أولى مراحل البعثة ٠

غير أن جيمس كوك كان يعرف أن بحارته بأســاليبهم الجافة يمكن أن يسيئوا الى هؤلاء القوم البسطاء المرهفين ، ولهذا فان عليــه أن يضع القانون توا ! وبالفعل علق اعلانا على الصارى الرئيسى ، وفيه أوامره بحسن السلوك على الشاطىء ، وقواعد الاتجار مع الأهالى، وحذر فيه أول من يخالف هذه التعليمات ، بأنه سيجلد عشرين جلدة لأن الجلد فى البحرية الملكية كان فى العادة عقوبة أى اساءة ترتكب ، وهى عادة كان يكرهها جيمس كوك ، ولكن سلوك رجاله يعنى نجاح مهمته أو فشلها ٠ والويل لمن يخالف أوامره !!

وبعد ظهر ذلك اليوم ، نزل الانجليز الى الشاطىء للمرة الأولى وحياهم جماهير التاهيتيين الذين لوحوا لهم بالفروع الخضراء ، دليلا على الصداقة ، فبدا تقدمهم على الشاطىء وكأنه موكب ملكى ٠٠٠ لم يكن قصر الملك بعيدا عن خليج ماتافاى ٠٠ وهذا القصر عبارة عن مسكن واحد طويل مسقف بالقش ٠ أما جدرانه فكانت مصنوعة من الغاب المشقوق الذى تمر الريح خلاله بطلاقة ٠٠٠ وهنا فى هــذا

المكان انتظر الملك توتاها وملكته رد زيارة ضيوفهم العظماء ٠

ولكن كوك كان يفكر فى المستقبل بعقله النشيط فلاحظ أن ساحل الخليج البعيد يصلح موقعا رائعا لبناء قلعة ، وعلى هذا يمكن اقامة المعدات العلمية ، استعدادا لمرور الزهرة تحت حماية مدافع السفينة ٠٠٠ وتضايق كوك وغضب لأنه لم يكن يحب أن يضيع كل هذا الوقت فى الولائم والأفراح ، ولهذا صمم على أن يبدأ العمل فى القلعة فى الصباح مباشرة ٠

وسرعان ما وقعت حادثة زادت من تصميمه هذا ؛ فقد أعدت وليمة للزوار ، وكان الموسيقيون يعزفون على الناى ويدقون الطبول ، وحيا توتاها الانجليز على عتبة القصر بحفاوة كبيرة ٠٠٠ وجلس المدعوون توا على الأرض فى دائرة حول وليمة فاخرة : لحم خنزير محمر ، ولبستر ، وأنواع عديدة من الأطعمة البحرية ، وأنواع مختلفة من الفاكهة ، آنية كبيرة بها عجينة رمادية تسمى « بوا » وشرح توتاها للمدعوين كيف يؤكل البوا ، وهى أخذ حفنة وقذفها بسرعة الى الفم ، وتذوق الانجليز البوا ، فوجدوها ذات طعم كطعم العجينة المرة ، واستمرت ألوان الطعـــام تمر نوعا تلو الآخر ، والموســيقى تصــدح بأنغامها الرتيبة التى لا تنقطع ٠ ومرت على المدعوين كؤوس آلافا (وهو شراب زنخ مصنوع من جذور النباتات وماء البحر) ٠ تتنقل من شفة الى أخرى وتصحبها عبارات الصداقة ، والمودة التى لا تنقطع ٠

وفجأة قطعت هذا المرح دفعة من طلقات البنادق فهب كوك واقفا فى تصلب وامتقع لون جوزيف بانكس ، وساد الجميع صمت رهيب ، واعترى البوليفيين خوف شــديد واختفى الأهالى المتجمعون خارج القصر ، وكأنه فعل سحر ٠

وحزن كوك حين اكتشف ما قد حـــدث : كانت هناك فرقة مكونة من ستة من البحارة ، تحت رياسة ضابط صف بحرى ترافق الجماعة التى نزلت الى الشاطىء وقف هـــؤلاء البحارة أثناء الحفل يحرسون فى تراخ ، فخطف أحد التاهيتيين بندقية بحار وأطلقها ، فما كان من ضابط الصف البحرى ، الا أن أصدر الأوامر باطلاق النار فأصيب عدد كبير من الأهالى بجراح ، ومما زاد الأمر سوءا أنهم طاردوا اللص وأطلقوا عليه النار فأردوه قتيلا ··· وهكذا عرض ضابط الصف بتهوره هـذا حيـاة الجماعة كلها للخطر ، كما خاطر بالهدف الذى جاءت من أجله البعثة ·

فغضب جيمس كوك وثار ثورة عارمة لم يثر مثلها من قبل وجرد الضابط المخطىء من رتبته ، ثم أعرب كوك وجماعته عن أسفهم الشديد وحسن نيتهم واستأذنوا من الملك والملكة ··· ولكن الخسارة كانت قد حلت ، وساد البرود التاهيتيين ، وكأنه وباء ، وسحبوا جميع دلائل الصداقة التى كانوا قدموها بسخاء ، ولن تستعاد هذه الثقة والصداقة الا بعد مدة طويلة ··· لقد كانت فترة العصر نهاية سيئة للصباح الجميل ···

* * *

وفى اليوم التالى بدأ العمل فى القلعة ، وسمى كوك المكان الذى اختاره « نقطة الزهرة » نسبة الى الكوكب الذى جاءوا ليراقبوه ، وبنى رصيف على ارتفاع خمس أقدام ، يحميه خندق ، وخلف هـذه المتاريس ستوضع الآلات العلمية فى خيام ، وعلى بعد مائة ياردة من هذا المكان ترسو الأنديفور بمدافعها مستعدة لحماية القلعة والرجال الذين يعملون ، وأخذت جمـــوع التاهيتيين يراقبون الرجال وهم يعملون ، اذ لم يكن البولينيون الذين يعيشون على سجيتهم فى حياة

سهلة بسيطة يعرفون هذه الأعمال اليدوية ، ولكن سرعان ما ظهرت صفة من صفات الأهالى السيئة ؛ فقد كانوا لصوصا مهرة لا يخجلون ولهذا سرعان ما اختفت السكاكين والبلطات والمسامير والفؤوس ، وكأنها حركات تنم عن خفة يد ، واكتشف الدكتــور سولاندر أن حقيبته الجلدية التى فيها نظارته سرقت من أمام عينيه ، كما سرق صندوق النشوق الخاص بجراح السفينة ، وفى الليل اختفى توتاها وحاشيته ٠٠ وبهذه الطريقة لم يعطوا لكوك أية فرصة لاصلاح ما قد فسد ٠

وبعد ذلك بأيام قلائل حدثت حادثة أطرف من هذه ؛ اذ خرج جوزيف بانكس والدكتور سولاندر برفقة القبطان فى بعثة مساحية على الساحل ، وبدلا من أن يعودوا الى القلعة لقضاء الليل قرر كوك والدكتور النوم فى أحد أكواخ الأهالى بينما نام بانكس فى زورق راس على الشاطىء ٠

وقبل النوم خلع كوك جواربه وطواها تحت رأسه ، ولمـــا استيقظ فى الصباح التالى لم يعثر للجوارب على أثر ٠٠٠ وكذلك كان حظ سولاندر أسوأ من كوك ، لأنه فقد جميع ملابسه الخارجية ٠٠ ولما خاض بانكس فى الماء عائدا الى الشاطىء كان من الواضح أنه لا يرتدى ســـوى سراويله ، أما صدريته ومسدسه وعلبة الذرور « البودرة » الخاصة به فقد اختفت جميعا من الوجود أثناء نومه ٠

ونظر الرجال الثلاثة بعضهم الى بعض فى خجل وأسف ، وتمتم الدكتور الطيب قائلا : « ليباركنى الله ٠ ان هؤلاء الهمج قد يسرقون أسنان المرء من بين فكيه لو أنها كانت غير ثابتة » ٠

ووافقه بانكس قائلا : «رغم ابتساماتهم هذه فانهم ليسو سوى مجموعة من النشالين الذين تقابل مثلهم فى زقاق من أزقة لندن » ٠

ولكن ما خفى كان أسوأ ٠٠ فقد حدثت حادثة كادت تودى بالبعثة ، فلما أشرفت القلعة على الاكتمال جيء بالأجهزة العلمية الى الشاطيء ومن بينها مزولة ، صنعت خصيصا لهذه الرحلة ، وكان هذا الجهاز الذى يزن عدة أرطال يستخدم فى مراقبة ارتفاع النجوم وزواياها ، فوضعت فى خيمة عليها بحار خاص لحراستها ٠

وفى صباح اليوم التالى : اختفت المزولة ٠

ولم يعرف البحار كيف يمكن أن يسرق شيء كهذا ، وشعر جيمس كوك باليأس اذ يجب العثور على هذه المزولة فورا والا فشلت البعثة ، ولحسن الحظ عاد توتاها الى القصر فى هذه اللحظة ، وبدا أن الملك كان يريد أن ينهى الخلاف بينه وبين الانجليز ٠٠٠ وأخيرا أعيدت المزولة بمساعدة الملك قطعة قطعة وركبت ثانيـــة ، ولكن شخصية اللص لم تعرف أبدا ٠

واقتربت أواخر مايو ، وكان الكسوف متوقعا فى الثالث من يونيو وكان على كوك وسولاندر مراقبة الظاهرة الطبيعية من « نقطة الزهرة » فى حين أبحر بانكس وضابط السفينة عبر الخليج الى جزيرة موريا لأخذ مناظر مستقلة ٠

وحانت الساعة المرتقبة التى أبحروا من أجلها نصف دورة حول العالم ولم يشب السماء الاستوائية أية سحب ، ونظر كوك ورفيقه بشغف خلال مناظيرهم المقربة ، فى حين دقت ساعة العالم الفلكى العظيم الموضوعة فى خيمة خاصة تعد الثوانى المحتومة ٠

ومع أول بصيص من ضـــوء النهار قطع قرص كوكب الزهرة المظلم حافة الشمس ، وعند الظهر كان من الواضح رؤية القرص المنتشر على الشمس حتى للعين المجردة ، ولما حانت الساعة الثالثة

كان العبور قد تم وقورنت الرسوم التى رسمها كوك مع الرسوم التى رسمها جوزيف بانكس ··· لقد أنجز الرجال الانجليز مهمة بعثة الجمعية الملكية على أحسن وجه ·

* * *

وحلت ساعة الرحيل ··· وصمم جيمس كوك قبل أن يترك تاهيتى على أن يبحر حول الجزيرة ، ويرسم خريطة لساحلها ويسجل أعماق الميـــاه وقام كوك بهذا بمهارته المعهودة ··· وشعر ببعض الضيق والأسف على أنه سيترك هذه الجزيرة الجميلة · لأنه بالرغم من عادة الأهالى القبيحة فى أن يأخذوا ما ليس لهم ، الا أن لهم مواهب عظيمة من الكرم والصداقة وخفة الروح . كما كانت حياتهم فى هذه الأرض الطيبة حياة سهلة سلسة ··· وفى الواقع تسببت هـــذه الحقيقة ذاتها فى وقوع الحادثة التى أخرت ابحار الأنديفور ؛ اذ فر اثنان من بحارة السفينة ، ولم يعرف أحد من أين يبدأ البحث عنهما فى مروج تاهيتى الخضراء وسرعان ما استقر رأى كوك على خطـــة جريئة ، فدعا الملك والملكة على ظهر السفينة ، فلبى توتاها الدعوة غير شاك فى الأمر ، وما ان صعد توتاها الى ظهر السفينة حتى أخبره كوك أنه اذا لم يقبض عـــلى البحارين الفارين ويعادا الى الســـفينة فستبقى الأسرة الملكية رهينة الى الأبد ···

ويجب أن تتذكر أن تاهيتى ليست جزيرة كبيرة ، وأن جميع قراها متصلة فيما بينها بنظام اتصال معروف باسم نظام « الدالية » فحين تدق الطبول على التلال تنقل الرسائل بسرعة فائقة من طرف الجزيرة الى الطرف الآخر،وهكذا لما وصل قرار كوك الأخير الى الشعب (الذى يحب مليكه ومليكته ويحترمهما) · بدأت الطبول تفرقع ··· وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة تماما وجد البحاران الفاران مختبئين

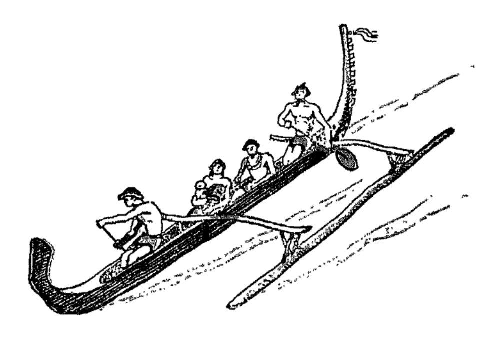
فى الجبال وأعيدا الى السفينة ، وفى الحال أطلق سراح الرهينتين الملكيتين ، وأعطيت الأوامر برفع المرسى ·

ومرة أخرى امتلأت المياه بالزوارق والسباحين تماما كما حدث فى اليوم الذى كانت فيه الأنديفور تبحر فى خليج متافاى ، وودع كوك ورجاله الأهالى البولينيين الوداع الأخير ، وغفر الجميع لبعضهم ما سبق أن حدث من سوء تفاهم ، وتبودلت الهدايا ، وحك توتاها وملكته أنفيهما مع جيمس كوك ، ودمعت أعينهم لوحشة الفراق · ولوحت المجاديف · وطفت باقات الأزهار على أمواج الجزر ، وكان الأهالى على الشاطىء يرددون احدى أغنياتهم القديمة التى سرعان ما تاهت بين أنغام البحارة المتكاثرين على أعمدة الملوينات ·

ها هى ذى ترتفع عاليا !

ها هى ذى ترتفع عاليا !

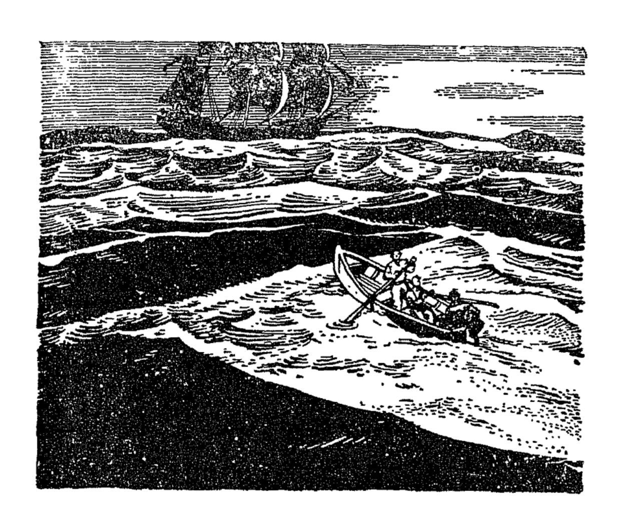
هلموا أيها العتاة هلموا !



ورفع البحارة المرسى من القاع المرجانى ، وتركت السفينة الزوارق خلفهـــا وهربت بسرعة عبر الخليج وكأنها غزال تطارده الكلاب ثم مرت فى الممر الذى تحده الشعب والصخور حيث الأمواج الجياع تحاول أن تصل اليها وهى تهرب ٠

ونظر جيمس كوك نحو مؤخر السفينة لحظة فبدت قمم تاهيتى العاليـــة ترتفع وتعلو أكثر وأكثر حتى التطمت بسحب الصباح المتلألئة وشطرتها شطرين ٠

وكانت مياه المحيط الباسفيكى الفسيحة الخالية تمتد أمامهم وخرجت الأنديفور الى الأمواج المتلاطمة تواجه المجهول ٠



الفصل السابع

طريق العودة الطويل

وبعد أن تركت الأنديفور جزيرة تاهيتى طافت بسلسلة من الجزر المجاورة ـ ولكن تاهيتى كانت أكبرها ـ وأطلق كوك على هذه الجزر اسم « جزر الجمعية » تكريما للجمعية الملكية ثم اتجه بالسفينة جنوبا .

ومرت أسابيع طوال قبل أن يروا اليابسة ثانية،سبعة أسابيع لم يروا فيها سوى الماء والسماء ، وكانت الأرض التى ظهرت عبارة

عن سلسلة بعيدة من الجبال الغامضة ، جعلت جميع من فى السفينة يخمنون أى أرض يمكن أن تكون هذه ؟ ورأى جوزيف بانكس أنها قارة « دالريمبل » الجنوبية العظيمة ٠

ولكن جيمس كوك لم يشاركه فى هـذا الرأى ، وقال : « فى اعتقادى أن هذه جبال نيوزيلندا ، فقد رسمها طسمان على الخريطة فى هذا المكان الاستوائى تماما » ٠

واستفسر الآخر فى تجهم وحيرة « طسمان ؟ »

« نعم ، الملاح الهولندى العظيم ، لقد رأى مثل هذه السلسلة من الجبال تماما منذ أكثر من مائة عام فى جنوب منطقة مدار الجدى الاستوائية ٠

« وهل نزل طسمان الى الشاطىء وأخذ لنفسه الحق فى هـذه الأرض ؟ » ٠

« لم يفعل اذ اضطرته جماعة من الأهالى الى الرجوع ولم يتتبع الهولنديون كشفه هذا » ٠

ولمعت عينا بانكس : « اذن تلك الأرض ـ أيا كانت ـ تنتمى الى الدولة التى تطالب بها ؟ »

« انك تأخذ الكلمات التى على لسانى تماما ياسيدى » ٠

منذ أمد بعيد درس جيمس كوك كل ما نشر عن هذا الجزء من المحيط الباسيفيكى ، فلم يقرأ يوميات طسمان وحدها بل قرأ كل شىء عنها ولكنه ذكر الخرائط الأولى لهذا الملاح الهولندى ، نعم فى اعتقاد كوك أن هذه الأرض التى تبدو بعيدة ما هى الا نيوزيلندا ٠

وسرعان ما تأكد منها ، لأنه لما أفرغت الأنديفور الريح من أشرعتها ووقفت مستعدة فى اتجاه الساحل ، انطلق زورق حربى هائل من خلف لســـان فى البحر وعبر المنطقة التى تشرف عليها السفينة ، لقد كان طول الزورق سبعين قدما وتزينه رموز غريبة ، وكان الجدافون أنفسهم يشبهون التاهيتيين غير أن أجسامهم كانت موشومة وشما شنيعا ·

وانفجرت من بين شفاههم صيحات التهديد ، ولوحوا بمجاديفهم فى طريقة حربية ·

وأصر كوك على اعتقاده قائلا : « لقد وصف طسمان مثل هذا العنصر من الآدميين تماما ، من الذى يستطيع أن يلومه لأنه لم ينزل الى الشاطىء · اننى أراهن بأن هذا الزورق فى صلابة الأنديفور ، ويمكنه أن يبحر مثلها بسهولة وسرعة » ·

ولم يضف كوك أن قوتها من الرجال يمكن أن تؤكد تقدمها بشكل أسرع من الأنديفور ، لأن الزورق الحربى كان يحمل حوالى مائتى مقاتل وهو أكثر من ضعف عدد رجال كوك ··· ها هو ذا عدد قوى حقا ··· حقيقة ان مدافع الأنديفور المركزية يمكن أن تبقى الزورق على مسافة بعيدة ولكن اذا اقترب الزورق منها فان أهالى المنطقة سيتفوقون على الانجليز بسهولة ·

وفجأة قذفت السفينة بوابل من الصخور ، وكانت بعض هذه القذائف موجهـــة توجيها دقيقا فأصابت ظهر السفينة وأسقطت عددا غير قليل من البحارة ·· لقد حانت اللحظة التى يجب أن يظهر فيها تفوق البارود والمدافع ، فأطلقت مجمـــوعة من الطلقات فوق رءوس المحاربين الذى يصرخون ، ففزع أهالى نيوزيلندا من هول الضوضاء التى أحدثتها المدافع ونافورات المياه التى أحدثتها دانات

المدافع التى تزن أربعة أرطال ، وفروا عائدين الى الشاطىء ، فلم يتردد من قبل فى تلالهم صدى مثل هذا الرعد الجبار ، ومع ذلك لم يبد فى صيحاتهم الحربية شيء يدل على الخوف ، لقد تقهقروا ــ هذا صحيح ــ ولكن ما من أحد يشك فى أنهم سيعاودون الهجوم ٠

تمتم سولاندر قائلا فى شك :

ــ « أتظن أننا نستطيع أن نتغلب على مثل هذا الشعب ؟ »

فذكره كوك قائلا : « ان أسلحتهم حجرية ، ولم أر أى دليل على وجود المعادن بينهم » ٠

واقترح ســـــولاندر قائلا : « أتعتقد أن البلطات والفئوس ستكون رسل السلام » ٠

« هذا صحيح ، لأن الشخص البدائى يعتقد أن المسمار يساوى أكثر من وزنه لؤلؤا ، ولهذا فاننا نستطيع أن نجاهد كى ننجح »

ولكن لما ذهبت مجمـــوعة من الرجال الى الشاطىء بعد ذلك ببضع ساعات قابلهم وابل من الرماح ٠٠٠ فحذر عريف السفينة البحارة وطلب منهم الرجوع ثم أطلق النار على الأهالى الذين استأنفوا الهجوم توا ٠٠٠ سحب أحد الأهالى رمحه وصوبه على العريف رأسا، فانطلقت طلقة أخرى قتلت المحارب فى الحال ٠٠ وانزعج جيمس كوك كثيرا لهذا اللقاء الأول بين رجاله وبين أهالى نيوزيلندا ، لأن اراقة الدماء تعتبر بداية سيئة ٠٠٠ ماذا يمكن أن تؤول اليه هـــذه الخطط الحربية ؟ وصدرت الأوامر برفع المرسى واتجهت السفينة جنوبا ولكنه قبل أن يرحل من هذا المكان أطلق عليه اسم « خليج الفقر » ٠

وانتقل نبأ وجود الأنديفور على طول الساحل عن طريق اشارات الدخان بسرعة فائقة تفوق سرعة انتشار النار فى البرارى وكان جنود البحرية فى حالة استعداد دائم وأفراد « أطقم » المدافع فى مواقعهم الحربية ، لأنه كانت توجد خلف كل لسان فى البحر زوارق بحرية حربية ، مستعدة للوثب والقتال ، ورغم كل هذه الأخطار قضى كوك ساعات طويلة فى رسم خريطة للساحل ــ فى عمل رسوم غاية فى الدقة ٠٠٠ ولم يغب عن ذهنه أنه قد ينجح عن طريق المصادفة الطيبة فى كسب صداقة هؤلاء القوم المحاربين العظام ٠

وفى يناير اكتشف خليجا محميا يمكن منه للانجليز أن ينزلوا الى الشاطىء دون أن يخشوا هجوم أحد ، وأسمى كوك هذا المكان « مضيق الملكة شارلوت » تكريما لزوجة ملك انجلترا وكان فى هذا يتبع مبدأ قويما ثابتا ٠٠٠ لقد رسم على خرائطه من قبل « كيب بوليزر » نسبة الى صديقه ونصيره القديم سير هيو ، « وشبه جزيرة بانكس » نسبة الى سير جوزيف وجزيرة سولاندر « تكريما للعالم السويدى ــ أسماء سيخلدها التاريخ ٠

وطوال هذه الأشهر التى قضتها البعثة فى البحر لم تكن هناك حالة مرض واحدة بداء الأسقربوط ، ولكنهم يجب أن يعثروا فورا على ماء وطعام « طازجين » اذا أرادوا أن يظلوا محتفظين بهذه الصحة ٠٠٠ زد على ذلك أن خشب السفينة يجب أن « يقلفط » وأشرعتها يجب أن تصلح ، ونحاسها يجب أن يجلى ويصقل ، ولهذا سرعان ما أقاموا معسكرا على الشاطىء وأعيد ملء البراميل وأتى الحطابون بالوقود من أرض بدت وكأنها غابة واحدة كبيرة ووضع المسئول عن السلاح بارود السفينة فى الشمس كى يجف ، فى حين بحث العلمـــاء عن النباتات والطيور النادرة ، وصاد بعض البحارة الطعام الذى يصلح ، وأخـــذ البعض الآخر يغلى القطران الذى يؤمن ألواح السفينة ،

ووصلاتها التى تحت المـــاء ، ودبت الحركة والنشاط فى السفينة والشاطىء ٠

ولم يمض وقت طويل حتى جاء أهالى نيوزيلندا أو الماورى (١) كما يسمون أنفسهم الى الانجليز يحملون علامات الصداقة والمودة ، واستبدلوا بالبيض والفاكهة والبطاطا المسامير والبلطات عن طيب خاطر ، وابتهج كوك لهذه الفرصة التى واتته أخيرا كى يتعلم شيئا عن أهالى هذه الأرض العظيمة ولقد كانت القبائل محاربة معادية فى الأنحاء الجرداء من خليج الفقر حيث كانت المعيشة شاقة صعبة ، ولكن هنا فى مضيق الملكة شارلوت هــذه المنطقة الغنية بأطعمتها كان الأهالى يميلون الى التصـــادق ورغم أن هــؤلاء الماورى كانوا يعيشون فى العصر الحجرى ، الا أنهم أظهروا عبقرية وذكاء أدهشا الأغراب ، وكانت تكثر فى غاباتهم الجذوع الرفيعة ، وهنا فى هذه الغابات ، وجد كوك شجر الصنوبر الكورى العظيم ، بلغ ارتفاع احدى هذه الأشجار ستين قدما فوق الأرض ومحيطها ١٩ قدما ، ولكنها مستقيمة استقامة السهم مخروطية الشكل قليـــلا ، وكان اسقاط مثل هذه الأشجار بالبلطات الحجرية يعد عملا شاقا جدا ، ورغم هذه الصعوبة كان الماورى يقطعون الألواح التى يزيد طولها على الستين قدما وعرضها على الاثنى عشرة قدما ٠٠٠ وكانت زوارقهم ، وبيوتهم مزينة بنقوش خشبية متشابكة صنعت بوساطة الصدف والعظام المشحوذة ، وكانت « بلطاتهم » منحوتة من حجر أخضر يشبه الزبرجد ، ولكنها كانت صلبة جدا رائعة الجمال رغم شكلها البسيط ٠

---

(١) الماورى شعب قاتم البشرة من أصل بولينيزى هم سكان نيوزيلندا أصلا قبل وصول الأوربيين البيض ٠

ولم يكن الماورى بأقل أناقة من أهل تاهيتى لولا هذا الوشم الأزرق الذى قصد به اخافة الأعداء كما كانت لغتهم تشبه لغة التاهيتيين ... ولما كانوا بحارة بطبيعتهم فقد أمدوا جيمس كوك بمعلومات قيمة عن الساحل والموانىء فتعلم منهم أن نيوزيلندا كانت تتكون من جزيرتين ولهذا صمم كوك على أن يبحر حولهما ويرسمهما، واقترح جوزيف بانكس أن يطلق اسم «ممر كوك» على الممر الذى بين الجزيرتين الشمالية والجنوبية ، وهو الاسم الذى ما زال يحمله هذا الممر حتى الآن وتخيل كوك هذه الأرض الطيبة ، يسكنها الرجال والنساء الانجليز ، لقد بدت امكانيات اكتشافه كبيرة لا حد لها .

وفى الأشهر التالية رسم كوك خرائط لأكثر من ٢ر٤٠٠ ميل من الساحل وأطلق أسماء « على الرءوس والخلجان والأنهار والجزر حسب الأحداث المناسبة لها : خليج الرخاء . خليج العطش ، نهر النعامة .. الخ وكان العمل أثرا لقدرته ، ولكنه شعر فى هذا الوقت أن تعليمات الأدميرالية (ادارة السلاح البحرى) قد أنجزت ، وأن الوقت قد حان للتفكير فى الوطن .

وكان أمامه طريقان ، الشرقى عن طريق كيب هورن ، والغربى عن طريق جزر الهند الشرقية الهولندية ، فقرر أن يسلك الطريق الأخير لأنهم يستطيعون أن يأخذوا تموينهم للرحلة الطويلة المتعبة من جاوة ، زد على ذلك أن مثل هذا الطريق يمكن أن يخدم هدفين فى آن واحد فالجزيرة القارة التى تسمى استراليا (التى أبحر حولها طسمان) تقع على بعد ألف ميل فقط من ناحية الغرب ، ولم يرسم منها الرجل الهولندى العظيم سوى شريط صغير من الساحل دون أن يرسو عليها ، ولم يعرف شىء عن داخل القارة . ها هو ذا تحد لا يمكن اهماله ، على الأقل ليس جيمس كوك بالرجل الذى يهمل شيئا كهذا .

* * *

وبعد ثمانيـــة عشر يوما من ترك نيوزيلندا شوهدت بشائر الطيور البرية للقارة الجديدة ، وقبل أن ينام جيمس كوك فى تلك الليلة كتب فى مذكراته أننى أشعر أنى أقف على حافة اكتشاف عظيم » ٠

كم صدقت غريزته هذه !

لقد كان الملازم هيكس الذى كانت عليه المراقبة فى الصباح هو الذى أيقظ القبطان ٠

وصاح الضابط فى ثورة : « انها اليابسة يا سيدى ! على بعد فرسخين (ستة أميال) من مقدمة السفينة » ٠

فهب كوك واقفا محاولا أن يكبت العاطفة الجارفة التى انتابته٠

واندفع هيكس يقول : « شاطىء منخفض يا سيدى وله لسان صخرى عند الجنوب » ٠

أستراليا ٠٠٠ آخر اكتشافات العـــالم العظيمة ٠٠ وضبط كوك صوته وهو يقول : « هـــذا رائع أيها الملازم ، حينما أرسم خريطتى ذكرنى أن أطلق اسما على هذا اللسان ٠٠ ما رأيك لو سميناه « لسان هيكس » ٠

وأشرق وجه الضابط الشاب بالفخر ، وتلعثم قائلا : « أشكرك يا سيدى ٠٠٠ أشكرك » ٠

وحذرت الرياح المضادة والتيارات الخائنة الأنديفور من الاقتراب وبدا لضابط الاقلاع فى حيرته أنه لا يوجد أى مرسى آمن ٠٠ وعلى الشـــاطىء أمكن رؤية اشـــارات الدخان خـــلال المنظار المقرب

(التليسكوب) ، ربما كانت اشارات السكان الأصليين ··· وهناك فى أحد الأماكن بدت جماعة من الرجال السود العراة وكأنها تتابع السفينة ، ولكنهم لم يشبهوا البولينيين الأنيقين فى شىء ·

وأخـــيرا فى التاسع والعشرين من ابريل ١٧٧٠ استطاعت السفينة أن ترسو فى ستار ميناء رائع ·· ولما كانت هذه المنطقة مليئة بعينات النبات الجميلة ، فقد أطلق عليها فى الحال اسم « خليج بوتانى » (علم النبات) · وعلى الشاطىء كانت تظهر مجموعة متزاحمة من المآوى البدائية لا تختلف عن مأوى أهالى تييرا دل فويجو · وفى الحال اختفت النســـاء والأطفال ، وتقدم ســـتة رجال سود عراة بأجسامهم مخططة بطلاء أبيض ، تقدموا يتحدون الانجليز ، وكان بعض الهمجيين يتسلحون بالرماح والبعض الآخر بأسلحة خشبية غريبة تشـــبه المنجل ويسمونها « البومرنج » ، وسرعان ما قذفوا الرماح ولكنها كانت سيئة التصويب سهلة الروغان ، ورد الجنود البحريون العدوان باطلاق مجمـــوعة من قنابل المدافع فوق رءوس الزنوج الذين فروا هاربين فى الحال تاركين نساءهم وأطفالهم وراءهم مطلقين صيحات غريبة تشبه أصوات الطيور ؛ أما النساء فقد تركن بدورهن الأطفال وفررن الى الغابة وأصبحت استراليا فاتحة ذراعيها مستعدة لاستقبال الغزاة ·

ودقت الطبول مستجيبة لانطلاق ثلاث دفعات من المدافع وحسر الرجال رءوسهم تحية لرفع علم بريطانيا ، باسم الملك جورج الثالث وأطلق على المنطقة اسم « جنوب ويلز الجديدة » ·

* * *

وفى الأيام التالية وجد كوك ورجاله أن الأهالى لا يضايقونهم ، ها هى ذى أرض رائعة خصبة ، ذات أشجار عاليـــة رفيعة مليئة

بالطيـــور المختلفة ، والخليج نفسه حى ملىء بالأسماك مكتظ ببلح البحر والمحار ولما جلس كوك ليكتب فى يومياته التى يسجل بها الوقائع ، لم يكن يظن أنه يكتب نبوءة مشهورة عن استراليا :

فى هذه البلاد الفسيحة لا يمكن أن يشك أحد فى أن أغلب أنواع الحبوب والفاكهة والجذور من جميـــع الأشكال يمكن أن تزدهر لو أنها أحضرت الى هنا وغرست وزرعت ، وهنا علف لقطعان من الماشية ، فى جميـــع الفصول ، أكثر مما يمكن أن يؤتى به الى هذه البلاد ٠

ربما كان سر ما سجله جيمس كوك أنه ما زال فيه جزء صغير من بقايا ابن المزارع ، ومع هذا فان خصوبة نيوزيلندا نفسها لم تؤثر فيه وتجعله يعبر عن نفسه بمثل هذه العبارات الرنانة ، لقد كانت استراليا التى تركها قارة ستغنى انجلترا غنى لا حد له ٠

وأخيرا تودد لهم أحـــد الأهالى ، وكان أقل جبنا من رفاقه ، وعرض عليهم عروضا للصداقة ، ثم تبعه آخرون ، ومن هؤلاء حصل كوك على معلومات قيمة عن النباتات والحيوانات ، ربما كان أعجب اكتشاف له هو أن القنغر (الكنجارو) حيوان يثب وثبات طويلة على رجليه الخلفيتين بدلا من أن يسير على أربع ، وكتب عنه جوزيف بانكس « لست أدرى ما أستطيع أن أشبهه به ، ما دمت لم أر فى حياتى شيئا يشبهه « حقا ان هذه أرض المعجزات » ٠

ولكن رغم شعور بحارة الأنديفور بالاثارة لأنهم أضافوا قارة جديدة الى عظمة دولتهم الا أنهم ملوا السفر واشتاقوا الى انجلترا ٠٠ وفى ظـــلام الليل فى باطن السفينة بدأت تسمع همسات العصيان ـ بخلع القبطان وضباطه ـ ولم يمر وقت طويل حتى انتقلت هـــذه الشائعات الى مقر قيادة السفينة فأزعجت العلماء وأقلقت الضباط

ولكن قبطانهم كان هو نفسه يوما ما بين هؤلاء البحارة ، كم كان يفهم جيدا الروح التى تولد العصيان ! وكلما أسرعت السفينة فى الوصول الى جزر الهند الشرقية الهولندية كان ذلك أفضل ٠

ولكن حظ الأنديفور السعيد كان قد بدأ يأفل ويختفى ، فغاصت فى مصيدة كبيرة من الشعب البحرية مجهولة تماما لكل من أتى الى هذه المنطقة . هنا كان الحاجز الشعبى الاسترالى العظيم متاهة مرجانية تمتد ألف ميل حيث تغلى الأمواج على الصخور المغمورة وتتقابل التيارات الخائنة فى صراع بحرى ٠ وعلى هذا الحاجز المرجانى كانت تتحطم التيارات والأمواج الهائجة لمسافة فرسخ أو أكثر ، وبطريقة ما يجب أن يجد جيمس كوك وسط هذه المتاهة الخطيرة ممرا آمنا يخرج منه الى المحيط ٠

وخفقت الأشرع وكان هناك رجلان يلقيان بالثقالات كل نصف ساعة وأرسل قارب أمام السفينة ليجد ممرا لها ، وجلس المراقبون عند كل « قلع » شراع ولحسن الحظ كان الجو صحوا ، والريح هادئة ، ولكن هذا اليوم المحتوم لم ينسه أولئك الذين خبروه وجربوه . وغابت الشمس ، وظهر القمر بدرا مشرقا ، وتقدمت السفينة فى بطء بطىء لا يزيد عن عقدة واحدة ٠

وكان الرجال فى المقدمة يغنون : « العلامة تشير الى اثنين وعشرين ٠٠٠ العلامة تشير الى واحد وعشرين ٠٠ » واقترح هيكس بأمل : « ان الماء كثير تحتنا الآن يا سيدى » ٠

وأجابه كوك بهز رأسه ، ان احدى وعشرين قامة (١٢٧ قدما) شىء كثير ولكنه مع هذا كان يشعر بالقلق ، انه لن يتنفس الصعداء حتى يخرج من هذه المنطقة الشيطانية ٠



ثم غاصت « الأنديفور » فى مصيدة كبيرة من الشعب المرجانية

وأصبحت النقالات تلقى الآن كل عشر دقائق ، وهى تقريبا السرعة التى يمكن بها انزالها واعادتها ثم سمع الطنان يصيح : « العلامة تشير الى عشرين ٠٠ العلامة تشير الى سبعة عشر » ٠٠٠

ولم تكد الكلمات تخرج من فم هذا الرجل الذى يقيس الأعماق حتى حدث اصطدام عنيف وارتجت السفينة بشدة واهتزت كالحيوان المربوط ، وانطلق الرجال فى الحال الى ظهر السفينة وانخلعت غابية(١) القلاع التى فى مؤخر السفينة وألقت بالمراقب الى البحر ، فهب جيمس كوك لمساعدة الرجل الذى يدير الدفة ، وانتابه خوف مروع ٠

وسمع صوت صادر من أحد الأماكن : «آه ياالهى لقد انتهينا !» ولم يتكلم أحد بعد ذلك ٠ وعرف الجميع ، ما قد حدث ، ارتطمت السفينة بصخور ورست عليها ، بعد الصدمة الأولى العنيفة سكنت الأنديفور سكونا تاما غريبا ، ولم تكن هناك صخور مرجانية ظاهرة فى الميناء المظلمة التى يضيئها ضوء القمر الخافت ، ولكن صوت تشقق باطن السفينة الخشب رن رنين الجرس الذى يؤذن بالموت ، يجب ألا تضيع أية لحظة ٠

وخاطب كوك ضباطه بهدوء : « يجب أيها السادة تخفيف حمولة السفينة فورا ٠ ألقوا بالمدافع والبراميل وجميع الثقالات الحديدية » ٠

ــ « نعم ، نعم « ياسيدى » !

ما ان صدر الأمر حتى هب الرجال ينفذونه ؛ لأن جميع الأشهر التى مضت فى اطاعة الأوامر قد اعدتهم لهذه الساعة ، فألقوا بالمدافع الستة المتحركة الى الماء ، وأفرغوا براميل المياه ، وسحبت جميع الثقالات من مصدرها فى قاع السفينة وألقيت الى الماء ، وأنزلت

---

(١) نوع من الأشرعة ٠

الغابيات ، وحزمت بعضها مع بعض ، وألقى بها الى الماء حيث يمكن التقاطها ثانية لو أن الأنديفور أنقذت بمعجزة سماوية . وعمل الرجال فى يأس صامت ولكن كلا منهم كان يفكر فى قدره المحتوم ، وكانت الأرض الرئيسية على بعد عشرين ميلا ، واذا انشقت السفينة فجأة فلن يكون هناك من القوارب ما يكفى لنقل كل البحارة ولكن أولئك الذين سيغرقون سيكونون أسعد حظا من الأحياء الذين سيلقى بهم الى شاطىء همجى بدائى طيلة حياتهم .

ولما بدأ المد مالت السفينة المصدومة ميلا حادا ، وتدفق الماء الى باطن باطنها ، فعمل الرجال فى ثلاث مضخات ، ولكن العمل كان مجهدا وشاقا بحيث ان الرجال لم يستطيعوا الاستمرار فيه أكثر من عشر دقائق ، ثم يلقون بأنفسهم على ظهر السفينة ، واستمر العمل على تخفيف حمولة السفينة ... وكان جيمس كوك موجودا فى كل مكان يبث الحماسة فيمن وهنت قواه ، والتشجيع فيمن تخاذل وضعف ... ان هؤلاء الرجال الذين كانوا يفكرون فى العصيان منذ أيام قلائل أصبحوا يستجيبون للأوامر فى طاعة صادقة ، وظلوا يعملون ويجاهدون طوال ساعات تلك الليلة الرهيبة .

ولما انبثق فجر يوم ١١ من يونية استطاعت الأنديفور ، بعد أن ألقى عنها حوالى خمسين طنا من حمولتها ، أن تخلص نفسها من هذه الصخور ، ولكن الماء كان ما زال يتسرب اليها بشكل خطر ، فاستخدمت خطة بارعة لوقف هذا التسرب . ذلك أنهم أتوا بمجموعة من نسالة الحبال ، وحاكوها فى قطعة خيش مربعة ، وربطوا فى الخيش حبالا طويلة ثم وضعوا هذا الخيش تحت هيكل السفينة حيث جعلها امتصاص الماء الذى بالداخل تمسك بالسفينة ... ونجحت الخطة وسرعان ما أصبحت مضخة واحد كافية لجعل الماء الذى فى قاع السنفينة فى مستوى آمن ، فأعيد انتشال الغابيات وأرسلت

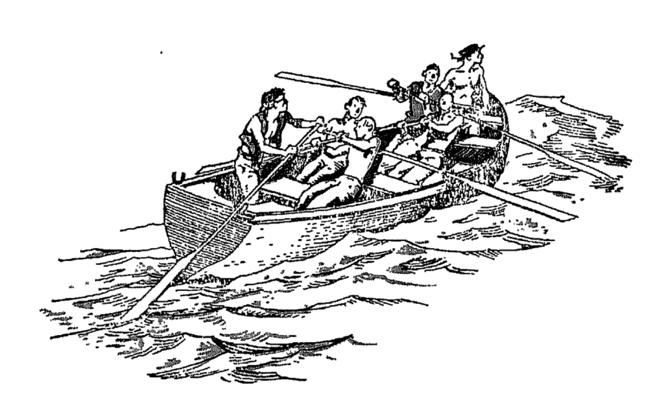
الى أعلى الأشرع وبدأ الابحار ، واستجابت السفينة استجابة ضعيفة للدفة لأنها كانت نصف مليئة بالمـــاء وتوجهت تبحث عن ملاذ فى اليابسة ٠

وأرسل قارب أمام السفينة ليبحث عن مكان على الساحل يمكن أن تؤخذ فيه السفينة الى الشاطىء وتستصلح ، وسرعان ما وجد هذا المكان ، وبعد ثمان وأربعين ساعة من اصطدامها بالصخور سحبت السفينة على ضفة نهر منحدرة حتى يأتى وقت الجزر فيتركها جافة عالية على الشاطىء وبسرعة أصلح الرجال ما أصابها من تلف ٠٠٠ كان الغلاف (الخشب الخارجى الذى يقى هيكل السفينة نفسه) قد تمزق فى مساحات كبيرة حين قفزت السفينة على الصخور ، وثقبت كتلة ضخمة من الشعب المرجانية أرضية السفينة الخشبية ، وتركت ثقبا كبيرا جدا ، ولحسن الحظ أن المرجان ثقبها وركز فى الثقب ، ولو أنه خرج من هذا الثقب فى أية لحظة لغرقت السفينة فى الحال كما تغرق كتلة من الحديد ألقيت فى الماء ، ولما عرف العالم مصير مشروع جيمس كوك ٠

وعلى ضفاف ذلك النهر الذى أطلق عليه جيمس كوك اســـم « نهر الأنديفور » بدأ العمل الضخم فى اصلاح السفينة ، ونصبت الخيام على الشاطىء حيث أقام الحداد مصهره وبدأ يصنع مسامير من قطع الحديد البالية ، وأسقطت أشجار جديدة ونشرت وصفت ألواحها ٠٠٠ ولكن مئونة الطعام بدأت تقل فخرجت جماعات من الرجال لصيد الحيوانات والأسماك ، وكان هنـــاك دائمـــا الزنوج الاستراليون المتسللون ٠ يحومون حولهم من بعيد ويثيرون أعصابهم ، لأنهم جميعا يعرفون أنه لو هاجمهم هؤلاء المواطنون بقوة لتغلبوا على رجال كوك الذين كانوا قد ألقوا بأغلب مدافع السفينة الى الماء ٠

ومرت ستة أسابيع مضنية قبل أن تستعد الأنديفور ثانيــة للابحار ، ولكن حتى فى لحظة الانتصار هذه تعرضت السفينة وحياة الرجال لخطر داهم فقد نمت على ضفتى النهر مساحات كبيرة من الأعشاب ، أعشــاب جافة جــدا • وكان الأهالى ينتظرون الوقت المناسب حين تهب ريح ملائمة ، ولما هبت الريح أشعلوا النيران فى الأعشاب ، واجتاح اللهب معسكر كوك • ولحسن الحظ كان هناك مد عال فحمل الماء الأنديفور الى الأمان ولكن تحطمت أغلب المعدات التى كانت على الشاطىء وانتشرت النار فى سرعة مذهلة الى الداخل متجهة نحو سفح الجبال حتى بدا وكأن العالم كله يحترق •

ونظر الجميع الى نهر الأنديفور يغمرهم شعور عميق بالارتياح، فى حين أبحرت السفينة ببطء مع التيار ، حتى لقد بدت مشكلة ايجاد مخرج من الحاجز الشعبى العظيم هينة سهلة ، وفى هذه المرة ابتسم لهم الحظ بعد أن امتحنهم بتلك التجربة القاسية ، وبعد أن

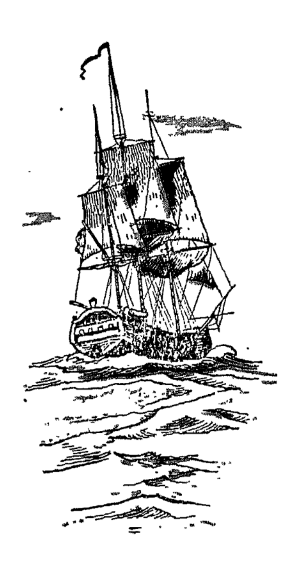


مرت عشرة أيام ، فى ابحار فنى ماهر وقياس للأعماق كل خمس دقائق ، وصلت السفينة أخيرا الى مياه المحيط الزرقاء العميقة ، وسجد الرجال شكرا لله حين تحققوا من أنهم أصبحوا فى أمان ••• ولو مؤقتا ••• واغرورقت أعين بعض الرجال بالدموع لهذه الرحمة السماوية الواسعة • أما جيمس كوك فقد شعر بالوهن لأول مرة يدب فى عظامه •

وأصبح الطريق الى جاوة مفتوحا أمامهم ، ولكن ظلت هناك مضخة تعمل ليل نهار دون توقف ؛ لأن الأمواج الشديدة كانت ترتطم بالسفينة القديمة ، وتفتح جراحها •

* * *

واعتبر بحارة الأنديفور باتافيا صورة من الجنة ، لأن هؤلاء الرجال استطاعوا مرة ثانية أن يسمعوا حديثا مثل حديثهم ويأكلوا طعاما كانوا يحلمون به ، ويعرفوا أخبار العالم العظيم الذى كانوا قد تركوه منذ أمد بعيد ••• والشىء الذى كانوا يجهلونه هو أن جاوة فى ذلك الوقت كانت منطقة من ألعن المناطق المميتة وأشدها خطرا ، لأن الملاريا كانت تكمن فى مياهها الراقدة ، وفى قنواتها المليئة بالمستنقعات ••• وما ان انقضى أسبوعان حتى سقط ثلاثة أرباع البحارة يعانون المرض الشديد ، ومات سبعة منهم ، وأصيب جوزيف بانكس والدكتور سولاندر ولكنهما أنقذا نفسيهما بأن ذهبا بعض الوقت الى التلال التى تعلو المدينة وأخيرا أصيب جيمس كوك نفسه بهذا المرض المخيف ، فهزت الرعشات جسمه العظيم وألهبته الحمى• ولكنه مع هذا أشرف بنفسه على سير العمل فى اعادة اصلاح السفينة دون توقف ، وكأنه يعمل فى غيبوبة ، وأصلح الهيكل والحبال ، ورفعت أشرع جديدة ، وملئت المخازن بالمواد الغضة « الطازجة » وملئت البراميل بالمياه •



وعلى أى حال لما جاء يوم الابحار كان أربعون رجلا من رجال رجال السفينة فى حالة من المرض لا تسمح لهم بالقيام بأعمال البحر، أما الآخرون فيجب أن يستعيدوا قواهم كى يضاعفوا عملهم فى السفينة ، رغم أن المرض كان قد أضناهم ... وسارت السفينة نحو رأس الرجاء الصالح فى طرف أفريقيا الجنوبى ، وكانت هذه الرحلة الطويلة بمثابة سباق مع الموت ... فكان الملازم هيكس ، أول من رأى أستراليا هو أول ضحية ، وفتحت الأمواج فمها كى تستقبل مراقب السفينة حين مات ، ثم تبعه البحار ، وعريف الجنود البحريين وثلاثة ضباط صف بحريين . ولم يمر يوم واحد دون أن يلقى فى

البحر جسد أو أكثر ، وفى وقت من الأوقات لم يكن هناك الا اثنا عشر رجلا يعملون ٠

لقد حز فى نفس جيمس كوك أن يرى بحارته المهرة الممتازين يموتون هكذا ٠٠٠ هؤلاء الرجال الذين قادهم وراقبهم وعرفهم خلال الأشهر الطويلة التى مرت منذ ترك انجلترا ، لقد بدا وكأن وبالا قد نزل على مشروعه العظيم فأذبل ثمرة كشفه ، وأحال طعم النصر مرا لا يطاق ٠٠٠ ولما وصلوا أخيرا الى خليج تيبل كان عدد الموتى قد ارتفع الى ثمانية وثلاثين ، وزحفت الأنديفور الى المرسى وكأنها شبح سفينة قد انتهت ٠

وأمدت السفينة فى المستعمرة الهولندية بأيد عاملة جديدة ، ثم استأنفت رحلتها الشاقة مرة أخرى ٠ وكان كوك نفسه قد أصبح شبحا نحيلا للرجل الذى ودع زوجته ، منذ أمد ٠٠٠ أمد بعيد وكأنه دهر ٠ أما سترته التى ذبلت وتمزقت فكانت معلقة على جسمه النحيل البالى ، وأما ضباطه ، ورجاله ، فبدوا وكأنهم « خيالات مآتة » ، لا يرتدون الا خرقا بالية ، وقد أصبح المنظر الرتيب المزعج للبحر والسماء كابوسا مخيفا على مر الأيام ، بينما جرت أسابيع مايو نفسها جرا ، ليأتى يونية ٠٠٠ ثم أتى يولية وفجأة اجتاحت السفينة حمى جديدة ، انها هذه المرة حمى الملل والانتظار ، لقد كانت انجلترا تقع فى مكان ما وراء هذه الفراسخ التى لا تنتهى من المحيط رغم أنها لم تكن بعيدة لهذا الحد ٠

« هيه اليابسة !! اليابسة ، اليابسة ، هيه ٠٠٠ هيه ! »

وصعدت هذه الصيحة عاليا مرة ثانية ، وتزاحم الرجال على ظهر السفينة وبدأوا يحملقون فى سكون وأعينهم مغرورقة بالدموع وهم يرون أرض الوطن العزيزة عن بعد ٠ وخفق قلب جيمس كوك

للمنزل الذى فى طريق مايل اند وللفتاة التى انتظرت هناك فى ثقة وصبر وللطفل الذى لم يره قط .

ولكنــه سيطر على صوته ، وهـــو يستدير الى ضابطه الأول ويقول : « افرد جميع الأشرع التى تحملها السفينة أيها الملازم ، وارفع الرايات على جميع القلاع ... هذه سفينة ملكية ، ولن نعود الى الوطن زاحفين ! »

ولم تستمر هذه الرحلة سوى ثلاثة أعوام عدا ستة عشر يوما فقط .



الفصل الثامن

القارة المفقودة

واشتهر جيمس كوك شهرة واسعة ، وانتشر نبأ ما حققه من انتصارات علمية فى جميع أنحاء انجلترا ، ودهش لوردات البحرية (الأدميرالية) لدقة خرائطه ومذكراته ، ولم يفتهم أن جيمس كوك حافظ على سلامة صحة رجاله حتى وصل الى جاوة ، وهذا ما لم يحدث من قبل ، ولم تحدث حالة وفاة واحدة بمرض الأسقربوط ! زد على

ذلك أن كوك أحضر معه الى جانب خرائطه ، وقصص الكنغر والقبائل المتأخرة واللآلىء ــ أحضر معه امبراطورية كبيرة ٠

ورقى الملازم كوك فورا الى رتبة قومندان وشعرت اليزابيث بالفخر ، لما حصل عليه زوجها ولو أنه فخر ليس تاما ، لأنها كانت تعرف أن زوجها يأمل أن يصبح قبطانا ولكنها كانت تعرف أيضا قواعد الأقدمية القاسية التى فى الأسطول ٠٠٠ على أى حال لقد أصبحت الشخصيات الهامة تسعى الى زوجها هذا ، واستقبله الوزراء ٠٠٠ وفى قرية يوركشاير التى تدعى جريت آيتون كان هناك رجل يتذكر ابنه الذى ذهب الى البحر بفرح وفخر ٠٠٠

وعلى أى حال ، لا يمكن أن يترك القائد مدة طويلة يتمتع بالراحة فى بيته تحت رعاية زوجته الرقيقة أو مع ابنه الذى تعلق بأبيه المشهور تعلقا شديدا لأن الكسندر دالريمبل ذلك الرجل الأسكتلندى الخيالى (أكبر صانعى الخرائط فى البحرية الملكية وعدو قديم لجيمس كوك) فحص الخرائط الجديدة ٠٠٠ وكان نجاح جيمس كوك يعد شوكة فى جانب دالريمبل٠لهذا فقد قال بكبرياء ان جيمس كوك لم يكتشف المحيط الباسيفيكى اكتشافا كافيا يمكنه من انكار وجود قارة عظيمة فى الجنوب ، وفى رأى دالريمبل العنيد أن مثل هذه القارة موجودة فعلا وأن كوك ما هو الا محتال ماهر مزور للمناظر وأماكن سبر أغوار البحر ٠

وسرعان ما جذبت هذه الفكرة انتباه الجمهور الخيالى المتقلب ، كيف يكون هذا ؟ لقد عرف الجميع أن هناك أنهارا من ذهب تنساب فى القارة الجنوبية العظيمة التى يعد سكانها الخمسون مليونا من عنصر أرقى ٠٠٠ ان الدولة التى تكتشف مثل هذه القارة وتحصل عليها ستصبح سيدة العالم ٠٠٠ وفجأة تذكر الناس أن كوك ليس سوى ابن فلاح وربما لم يكن بطلا عظيما كما اعتقدوا ٠

وبدأ القلق يعترى لورد ساندويتش ، أعلى لورد فى سلاح البحرية (الأدميرالية) ، لم يكن متأكدا من نظرية دالريمبل تأكدا كبيرا ولكن انجلترا ستصبح أضحوكة فى العالم لو أن دولة أخرى اكتشفت هذه القارة المجهولة وامتلكتها ، وفى الواقع أن كوك لم يثبت عدم وجود مثل هذه القارة وانما فشل فقط فى العثور عليها ... ووضع الملك جورج نفسه حدا لهذه المسألة .. اما أن يكون جيمس كوك مخطئا ، واما أن يكون دالريمبل هو المخطىء لهذا يجب أن تجهز بعثة أخرى فى الحال وتستعد لاجلاء الأمر ويجب أن يثبت كوك أنه يستحق الترقية الجديدة .

وأنصت كوك الى هذه الشائعات دون أن يتأثر ، وعرف أنه قد بذل قصارى جهده ، ومع هذا فان بشائر الرحلة الأخرى لم تضايقه ، لأنه كان قد بدأ يشعر بالملل بين هؤلاء القوم الذين على اليابسة ، ورغم أنه كان يحب أسرته حبا جما ، الا أن الحنين الى البحر كان يسرى فى عروقه . وبدا فى مخيلته نخيل تاهيتى الجميل ، وهو يتراقص لهبات النسيم ... وقمم نيوزيلندا المغطاة بالجليد الذى يتلألأ فى ضوء الشمس ... ما زالت أنشودة البحر ترن فى أذنه كما كان يسمعها فى المحارة التى كانت معه فى طفولته .

وأصر على أن تتكون البعثة الثانية من سفينتين بدلا من واحدة وذهب مرة ثانية الى أحواض هويتبى فوجد سفينتين بنيتا على طراز ناقلات الفحم القوية ، فسمى احداهما « رزوليوشن » ، وسمى الأخرى ، « ادفنشار » ، وتولى هو قيادة الأولى ، أما الثانية فقد أعطيت قيادتها لضابط بحرى ممتاز يدعى الملازم فيرنو ، ، وموّنت السفينتان استعدادا لرحلة تستمر عامين ونصف عام وابتسم فيرنو بلطف حين عرف الاحتياطات التى يتخذها كوك ضد مرض الاسقربوط،

وقال انه لا يمكن أن يحمل سفينة بشحنة من الكرنب المخلل ...
وبعد ذلك بشهور كان يندم على حماقته هذه .

وطلب رجال كثيرون ممن عملوا على سفينة الأنديفور أن يعملوا مع نفس القائد الذى أعجبوا به كثيرا ، وسيكون تحت امرة كوك هذه المرة ١١٢ ما بين ضباط وبحارة وكان على سفينته القوية هذه أربعة وعشرون مدفعا ، أما سفينة « المغامرة » فقد حملت واحدا وثمانين رجلا وعشرين مدفعا ، كما حملوا معهم ماعزا وأغناما وخنازير وطيورا ، واتفقوا على أن يتركوا ما يبقى حيا من هذه الحيوانات مع أهالى بحار الجنوب ، واختيرت مجموعة جديدة من العلماء ، كما رافقهم رسام شهير كى يرسم « صورا » لكل شيء لا يستطيع الرحالة أن يصفوه وصفا كافيا ، وصدرت أوامر البحرية (الأدميرالية) بأن تدخل هاتان السفينتان كل ركن من أركان المحيط الباسفيكى الجنوبى لم يفحص حتى الآن ، حتى تتقرر مسألة وجود قارة جنوبية .

وفى ٢١ من يونية ١٧٧٢ كان كل شيء معدا ، وودع جيمس كوك أسرته ، وبذلت اليزابيث قصارى جهدها كى تحبس الدموع فى مقلتيها ، ضمها زوجها فى حب ، ثم ضم ابنه الصغير الذى كان يحبه حبا عميقا ، الى صدره لحظة ! وأمسك الولد الصغير بطيات سترة والده الرسمية الأنيقة وقال فى صوت رقيق مستعطفا أباه : « انك ذات يوم ستأخذنى أنا أيضا ، أليس كذلك يا والدى ؟ »

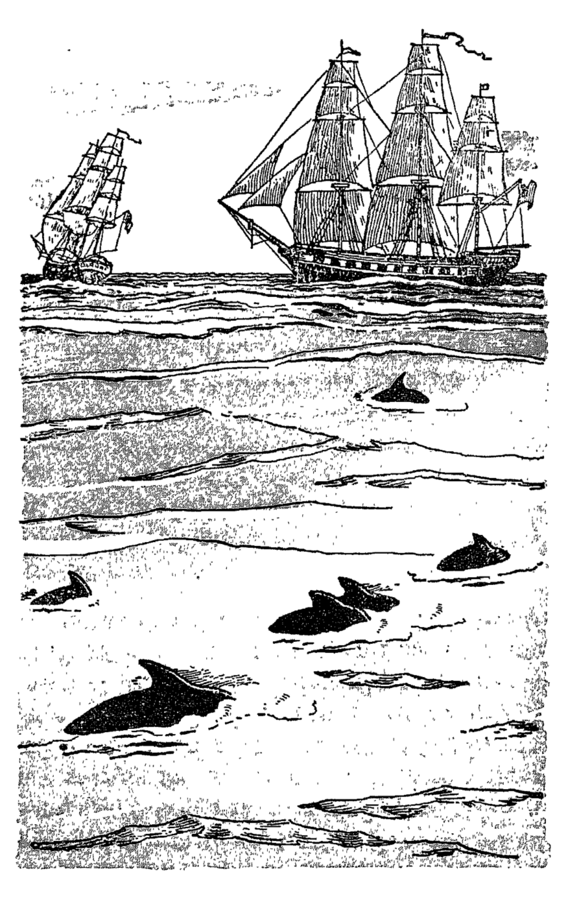
— « من المؤكد يا ولدى ، سيكون ذلك ذات يوم » وعد الرجل ابنه وهو يعنى كل كلمة يقولها : « ولكنك يجب أن تكبر وتقوى حتى تستطيع أن تشد الأشرع ، وفى نفس الوقت يجب أن تعتنى بأمك حتى أعود » .

وبدأت السفينتان رحلتهما والريح هادئة ، واتجهتا نحو رأس الرجاء الصالح ، وهناك ، بعد ذلك بثلاثة أشهر ونصف شهر أخبرهم حاكم المستعمرة الهولندية أن هناك سفينة فرنسية وصلت الى هذا الميناء حديثا وهى تستهدف اكتشاف تلك القارة العظيمة ، وهكذا بدأ السباق ٠

ولما اتجهت السفينتان جنوبا ازداد البرد ، وامد الضباط والجنود على السواء ، بملابس صوفية تعلوها سترات قصيرة تعرف باسم « فيرنوت » ولكنه كان من المستحيل أن تحتفظ لهم بالدفء والجفاف وكان مصدر الحرارة الوحيد فى كلتا السفينتين هو موقد السفينة ، والانسان لا يستطيع أن يجد الراحة الا فى الدفء الذى بداخل بدنه ، وهلك عدد كبير من الحيوانات الموضوعة فى حظائر فى مقدمة غرفة البحارة بسبب تعرضها للريح الجليدية الباردة ، وتحول المطر الى شفشاف ثم الى جليد عنيف غزير ، وتجمدت الأشرع وكأنها ألواح معدنية وأخذ البحارة يدقون عليها بقبضات دامية ٠

ولما اقتربت السفينتان من المنطقة القطبية بدت لهم من بين الضباب والجليد جبال ثلجية ، وفى بعض الأحيان كانوا يفزعون اذ يفاجأون بها قريبة جدا منهم ، وقدر الرجال أحدها فكأن ارتفاعه حوالى مائة قدم وجدرانه كانت تشبه الصخرة الصلبة التى ترتطم عليها الأمواج ، وكان هذا الجبل الثلجى قريبا جدا لدرجة أن السفينة تدور بعيدا عنه وتتلافاه ، وكانت فرصتهم الوحيدة هى أن يغيروا اتجاه السفينة نحو الريح بقدر الامكان ، ومرت لحظات من الشك الرهيب ، فى حين تلافت « القرار » الجبل الثلجى بأقل من خمسين قدما ٠

وكان الجليد مغطى بالطيور وكأنها رجال صغار يرتدون سترات سوداء وبيضاء ، وهى أول بطاريق رآها الانسان ، وكانت هناك



وأخذت الحيتان تقفز حول السفينتين الوحيدتين

حيتان ضخمة تقفز حول السفينة مصدرة صيحاتها الحزينة ، انه منظر وحشى مخيف جعل الجميع ينغمسون فى اليأس ، وجعل هـــؤلاء الرجال أنفسهم الذين رجوا وألحوا فى الرجاء كى ينالوا ميزة الابحار مع الملاح العظيم كابتن كوك يندبون حظهم ويتساءلون : أى نوع من الرجال هذا الكابتن كوك : عبقرى أو مجنون ؟ أما عن كوك فقد ظل يحبس نفسه وتفرغ للقيادة وصمم على ألا يعود حتى يخلص النـــاس الى الأبد من خرافة القارة الجنوبية العظيمة .

وأصبحت الحاجة الى ماء الشرب ملحة ، ولحسن الحظ اكتشفوا أن جليد البحر حين يذاب يصبح ماء عذبا ، فأمر كوك بأن تذهب القوارب لاحضار الجليد ... وسرعان ما تجمع لديه خمسة عشر طنا من الجليد ، وفى يوم رأس السنة أعلن المراقب الذى على رأس الصارى أنه يرى أكثر من مائة جزيرة ثلجية ، وأن بعضها يبلغ طوله نصف ميل ، والباقى لا يقل طوله عن طول السفينة ... وكان البحارة قد ادخروا طعامهم الشهى للاحتفال بهذا اليوم ... يوم رأس السنة ، ولكنه كان احتفالا حزينا .

وفى ١٧ من يناير ١٧٧٣ عبرت المنطقة الجنوبية المتجمدة لأول مرة فى التاريخ وهنا دوت عاصفة عنيفة للغاية فانفصلت السفينتان احداهما عن الأخرى ، وظل كوك يبحث عن السفينة الأخرى ثلاثة أيام جيئة وذهابا ، بين كتل الجليد الطافية ، وأضيئت الأنوار أثناء الليل وأطلقت المدافع على فترات منتظمة خلال النهار ولكن «ادفنشار» كانت قد اختفت كلية وكأن المحيط قد انشق وابتلعها ، وهذا هو ما ظنه الكثيرون وشعر قبطان « رزوليوشن » ببعض الراحة لأنه كان قد توقع أن يحدث مثل هذا الافتراق فاتفق مع قبطان «ادفنشار» على أنه لو حدث هذا فانهم يلتقون فى مضيق الملكة شـــارلوت فى نيوزيلندا .

وزاد اختفاء « المغامرة » من شعور بحارة « القرار » باليأس العميق لأنهم لم يشعروا بهذه الكآبة المتناهية حين كانت ترافقهم سفينة أخرى ··· وكتل الجليد هـــذه التى تمتد شرقا وغربا الى ما لا نهاية ، والسفينة تنجو بين الفينة والفينة من هلاك مؤكد فى آخر لحظة ··· ومـمـــا زاد الأمر سوءا أنهم عرفوا أنهم فى فصل الصيف ··· كيف اذن تكون الحال فى الشتاء ؟

ونظر الضباط البحارة الى قبطانهم بقلق ، ولكن لم يجرؤ أحد على أن يفاتحه فيما كان يدور بخلد الجميع ··· متى يعودون ؟ ولكن كوك لم يكن بالشخص الذى يتراجع بسهولة فرغم الزوابع والبحار الهائجة استمرت « القرار » شهرا آخر تسير فى اتجاهها نحو الشرق فى خط عرض ٥٦٠ جنوبا ·

وفى ليلة السابع عشر من فبراير كانت السماء مضاءة بحزمة ضوئية عريضة غريبة ــ حلزونات ملونة غمرت البحر والجليد بوهج مرعب ·

ها هو ذا الشفق الجنوبى المقابل للفجر القطبى فى الشمال ، ولكن البحارة الذين يؤمنون بالخرافات لم يروا فى هـــذا الوهج الا تأكيدا لمصيرهم المحتوم ·

وعند خط عرض ٥١٥ ، ٥٦٧ أصبح من الواضح أنه لا يمكن التوغل فى هذه الحقول الجليدية ، التى لاتنتهى ، ولم تبحر سفينة من قبل الى هذا المكان فى الجنوب ، هكذا أصبح من المؤكد أن نظرية دالريمبل عن وجود قارة جنوبية قد تبخرت ، وأخيرا أصدر جيمس كوك الأمر الذى طالما ترقبه البحارة وهو الاتجاه نحو الشمال ، فهب البحارة يلبون هذا الأمر ··· لقد مضى على ابحارهم ١١٧ يوما كاملة

وقطعوا مسافة ٣٫٥٠٠ ميل فى المحيط دون أن يروا أى أرض ولو مرة واحدة ٠

وبدت نيوزيلندا عالية فى الأفق ، جميلة وضاءة وكأنها حلم ، ورست « المغامرة » بأمان فى مضيق الملكة شارلوت ، ولكن كان اثنان من رجالها قد ماتا بمرض الأسقربوط ، وكانت خمسة عشر آخرون فى حالة مرض شديد ، وبدأت صحة هؤلاء المرضى تتحسن على أكل الفاكهة والخضروات وأصبح الملازم فيرنو الذى سخر من جيمس كوك فى بداية الرحلة واعتبره لايهتم الا بالأكل يتبع نفس فكرته ٠

وأنزلت الحيوانات التى ظلت حيـــة بعد ما عانته فى المنطقة القطبية الجنوبية الى الشاطىء ٠٠٠ ولم تكن ســـوى بعض الأغنام القليلة وعدد من الخنازير ٠ وكان الهدف من هذا أنه اذا قرر الانجليز فى يوم من الأيام أن يستعمروا هذه الأرض فانهم سيجدون حيوانات أليفة تنتظرهم ، وغرسوا الجزر والبطاطس واللفت ، والجزر الأبيض أيضا ، وأفهموا أصدقاءهم المورين الذين فى المنطقة كيف يرعون هذه الأشياء ٠

ثم أبحرت السفينتان متجهتين الى الشمال فى شبه نزهة بحرية ورستا فترة قصيرة فى تاهيتى وأخذتا الخشب والماء اللازمين وقام الملك توتاهـــا العجـوز ورفاقه باكرام الضباط بينما عانق الأهالى البحارة فى نفس الوقت الذى سرقوا فيه بعض ما كانوا يحملون ٠

واكتشفت فى غرب تاهيتى سلسلة من الجزر تزيد على مائة جزيرة ، ويسكنها جنس ودود أنيق ، وقد أسماها كوك فى الحال « الجزر الودودة » ٠٠٠ ثم أبحرت السفينتان فى دائرة واسعة فى المحيط الباسيفيكى ، ووصلتا الى « جزر الماركيسا » التى لم يكن قد تحدد مكانها بعد على أية خريطة ثم اتجهوا ثانية نحـــو الجنوب الى

« جزيرة ايستر » حيث التمائيل الحجرية ، الضخمة متراصة على الشاطىء تسخر من كل من يحاول أن يكتشف سر وجودها ٠٠٠ وكانت هذه الدولة فقيرة ، والماء رديئا ، والسكان القلائل ـ الذين يعيشون فى ظل هذه التماثيل الغريبة السوداء ـ ليس لديهم من الطعام ما يمكن أن يقدموه ٠

ورفع المرسى وأبحرت السفينة مرة أخرى ، وأينما أبحر جيمس كوك كان يضيف اكتشافاته الجديدة الى خرائط المحيط الباسيفيكى ، ومن بين هذه الاكتشافات « جزيرة نورفولك » و «كاليدونيا الجديدة» ووجد كوك أن الجزيرة الأخيرة هى أكبر جزر المحيط الباسيفيكى الموجودة فى هذه المنطقة ، كما اكتشف عددا كبيرا من الجزر الأصغر فسماها ورسمها على الخرائط ٠

ولكن شبح قارة دالريمبل المفقودة كان يطارد جيمس كوك وقرر ألا يعود من بحثه الا بعد أن يبذل محاولة أخيرة فى المياه الجليدية التى فى جنوب نيوزيلندا ، وهكذا تأرجحت السفينتان وغاصتا أسابيع طويلة وسط البحار العاصفة التى تمتد فى منتصف الطريق الى أمريكا الجنوبية ، وهنا اختفت « المغامرة » مرة أخرى ، ومرة أخرى لم تكن هناك اجابة على اشارات « القرار » ، ترى هل غرقت بين الزوابع الغريبة العنيفة السائدة التى يعرفها البحارة باسم « الأربعينات الزائرة » ؟ سوف تمر عدة أشهر قبل أن تعرف اجابة هذا السؤال ٠٠٠

ثم حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد مرض جيمس كوك ، وهو الآن فى السادسة والأربعين من عمره ، وقد قضى معظم هذه السنوات فى حياة شاقة قاسية حتى أصبح جسمه النحيل ، مثل خشب البلوط الذى فى السفينة ، عصفت به الرياح وهدمته الأمواج ،

ولم يعد ينام الا نوما خاطفا ، ولم يستطع أن يحافظ لا على الطعام ، ولا على الدواء • وأشرف على الموت ، ويئس المستر باتن جراح السفينة من انقاذ حياته ولم يصدق بحارة « القرار » ولا ضباطها أن الرجل الذى أطاعوه ولعنوه وأحبوه قد يموت ، وأخـــذوا يقومون بعملهم فى صمت رهيب وكأنهم اشباح تتحرك • • • وفرح الجميع فرحة كبيرة يوم جاءهم باتن وقال « لقد تحسنت صحته اليوم فليباركه الله » •

* * *

ونفذت أوامر الأدميرالية على أحسن وجه ، فلم تكن هناك سفينة قط أبحرت أبعد ، أو خاطرت أكثر ، من هذه السفينة ••• وحان الوقت للتفكير فى الوطن وتحسنت صحة جيمس كوك سريعا ، وقرر أن يعود عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى لم تكن خرائطه قد أتقنت ، فأراد أن يصححها ! ورغم الطقس الردىء ، وملل رجاله وقلقهم الشديد ، مسح جيمس كوك المنطقة بأكملها قبـــل أن يبدأ رحلته الطويلة عائدا الى الوطن عبر الأطلنطى •

وأخـــيرا لما رأى المراقب تلال بلايموث كانت « القرار » قد ابحرت لمدة ثلاثة أعوام وستة عشر يوما ، واكتشفت مساحات بحرية تبلغ ٢٠٫٠٠٠ فرسخ ، ولم تفقد الا أربعة رجال ، ولم يمت منها أى شخص بداء الاسقربوط ، أما « المغامرة » فقد عادت الى الوطن قبل ذلك بسنة بعد أن كانت قد تهدمت •

وكان آخر ما كتبه جيمس كوك فى مذكراته :

« لقد أبحرت حول المحيط الجنوبى فى خط عرض بعيد وجبته بطريقـــة دقيقة حتى لا أدع مجالا لاحتمال

وجود أية قارة الا أن تكون بالقرب من القطب وهـذه
منطقة أبعد من أن يصل اليها ملاح وان فى هذا الكفاية
لاسكندر دالريمبل ...

واستمتع كوك مرة أخرى بالهدوء والراحة بجوار أسرته ولكن حدث ذات يوم أن ظهر رسول فى طريق مايل اند يحمل رسـالة مطوية ومختومة بخاتم رسمى . انهـا براءة جيمس كوك التى تمنحه رتبة « كابتن » فى البحرية الملكية وكانت البراءة تحمل خاتم وتوقيع جلالة الملك جورج الثالث ... وعلاوة على هذا استدعى جيمس كوك لمقابلة الملك فى قصر سان جيمس .

وظل كوك لحظة فى دهشة لا يكاد يصدق كل هـذه الحقيقة الفياضة ووقفت اليزابيث الى جواره لا تتكلم ، ونظرت عاليا الى الرجل الطويل النحيف الذى من يوركشاير بأنفه الشامخ وجبهته الرقيقة وخده الأسمر الذى لفحته شمس البحار السبعة وريحها ، هذا الرجل هو زوجها ، وربما حدست شيئا مما يدور بخلده لأنها امرأة حكيمة .

انه كان يتذكر حقول جريت آيتون حيث عمل الى جانب والده ... ويذكر الصـبى الذى كان يرتدى سروال الركوب فى ذلك الصباح حين ترك الوادى الذى ولد فيـه وأمه تتعلق به . وتهمس «ليحفظك الله يابنى ويعدك الينا سالما» . والسنين التى قضاها وحيدا ... لقد كان كل هذا سبيلا الى هذه الغاية ... أن يصبح هو ، جيمس كوك ، ابن الفلاح « كابتن » فى البحرية الملكية .

وسأل كوك المرأة التى كانت تمسك بذراعه : « أحقا أستحق هذا التشريف من جلالته ؟ »

وجاءت اجابة اليزابيث سريعة مؤكدة « تستحقه ؟ لم يفعل أحد لانجلترا أكثر مما فعلت أنت ، لقد ولدت قبطانا » ٠

والتفت كوك اليها وعيناه الزرقاوان ملتهبتان ، وشفتاه رقيقتان ، وقال : «ان البحار الناجح يكون زوجا فاشلا يا اليزابيث».

فأجابته قائلة : « الا زوجى » وأمالت رأسها الى رأسه ٠



الفصل التاسع

الشاطئ البعيد

وقبع الكسندر دالريمبل فى صمت عنيد · لقد انقضى يومه ، لأن جيمس كوك عاد هذه المرة عودة البطل الذى أصبح اسمه وانتصاراته على كل لسان فى اسبانيا وهولندا وفرنسا وروسيا ، اذ اعترف الجميع بأمجاد أعظم ملاح عرفه العالم ·

وانتخبت الجمعيـــة الملكية ـ تلك الهيئة المهيبة ! ـ انتخبت جيمس كوك باجماع الآراء عضوا فيها وقرأ ذلك الصبى نفسه ـ الذى كان فيما مضى يعمل فى حوض هويتبى للسفن ـ قرأ بنفسه بحثه الذى أعده عن الطرق التى استخدمها فى وقاية صحة بحارته ، أثناء الرحلة التى دامت ثلاث سنوات ، وفى نهاية العام أكسبه بحثه هذا وسام سير جودفرى كوبلى الذهبى وهذا أعظم تشريف فى انجلترا للعمل التجريبى ٠

ودوى التصفيق حين نادى رئيس الجمعية الملكية باسم الكابتن كوك كى يتسلم الوسام ، ولكنهم فوجئوا بأمرأة شابة نحيلة تنهض لتتسلم الوسام ، لقد أتت اليزابيث كوك وحدها كى تنال الشرف بالنيابة عن زوجها ٠ أما كوك فكان قد رحل ليكتشف عوالم جديدة٠

بدأت رحلة كوك الثالثة والأخيرة بهذه الطريقـــة : « لقد ظل الملاحـون قرنين كاملين يبحثون عن طريق أقصر يربط المحيـــط الأطلنطى بالمحيط الباسيفيكى لأنه اذا أمكن اكتشاف مثل هـــذا الطريق على الساحل الشمالى الغربى لأمريكا فان تجارة انجلترا مع دول الشرق الأقصى ستكون أسرع بكثير ٠

فقدم الملك جـــورج جائزة قدرها ٢٠٠٠٠ جنيـــه للملاح الانجليزى الذى يكتشف مثل هذا الطريق القصير ٠٠٠ ولم تكن هذه الفكرة حديثة ، لأن سير فرانسيس دريك وهنرى هدسون وجاك كارتييه ، كل هؤلاء كانوا يفكرون فى امكان ايجاد طريق شمالى شرقى ٠٠٠ وألهبت هذه الفكرة جيمس كوك بما كان له من عقل يحلق فى الذرى ٠

واقترح كبير اللوردات فى البحرية (الأدميرالية) أن يقوموا بمحاولة جديدة فى بحار أمريكا الشمالية ٠٠ وفكر لورد ساندويتش

فى الرجل الوحيد الذى يمكن أن يقود مثل هذه البعثة : الكابتن جيمس كوك ، ولكنه تردد فى تقديم مثل هذا الاقتراح لرجل عاد لتوه من رحلة طويلة شاقة خطرة لأن كوك يجب أن يترك لينضم الى أسرته ويعيش معها فى سلام . . . ومع هذا فقد دعا لورد ساندويتش الملاح الشهير الى تناول العشاء فى احدى الأمسيات مع سـير هيو بوليزر . وهنا اجتمع ثلاثة أصدقاء قدامى مجربين بعضهم مع بعض.

ولما دار الحـديث حـول الممر الشمالى الغربى استدار كبير لوردات البحرية الى جيمس كوك وقال : « انك أنت يا صديقى العزيز الذى تستطيع أن تعطينى رأيا أصوب من أى رأى آخر . من ذا الذى ترشحه ليكون قائدا لمثل هذه البعثة ؟ »

ولم يتردد كوك فى اجابته لحظة : « هو أنا يا سيادة اللورد » .

وابتسم سير هيو ومضيفه ... ان انجلترا يجب ألا تخاف على عظمتها لأن أحسن بحاريها يستعد للابحار مرة أخرى .

وفى ١٠ من فبراير ١٧٧٦ صدق الملك على تعيين كوك .

* * *

وباح البحار العظيم بخبر الرحلة الى زوجته الحبيبة ووافقت اليزابيث على الأمر بشجاعة ، رغم أنها كانت كأى امرأة أخرى كثيرا ما تحلم ببيت هادىء تعيش فيه هى وزوجها جنبا الى جنب يرعيان ابنيهما حتى يكبرا . . . لقد تركت السنون الطويلة التى قضتها فى الانتظار أثرها فى وجه اليزابيث ، وفى التجعدات التى حول فمها والشعيرات البيضاء التى ظهرت فى شعرها الأسود ، ولكن عينيها كان لايزال فيهما حيوية تلك الفتاة ، التى واجهت نفس هذا الرجل

منذ أمد بعيد فى مسكنه المتواضع غير المنسق فى شادويل ، الفتاة التى قالت : « يا لعظمة أن تقوم بمثل هذه الأشياء ! لابد أننا جميعا نبدو فى نظرك بلداء » .

واستدارت اليزابيث ، المرأة ، الى زوجها ووضعت يدها فوق ذراعه وقالت بصوت منخفض واضح : ان أمثالك من الرجال يازوجى العزيز لايمكن أن يكونوا ملكا لزوجاتهم ، وأطفالهم ، انهم ملك للعالم ، للتاريخ ، ولكن .. عدنى بشىء واحد ، واحد فقط ..

« ما هو ياعزيزتى اليزابيث ؟ » . . .

« هو أنك حين تعود من هذه الرحلة لا تتركنا ثانية » .

وأخذ جيمس كوك زوجته بين ذراعيه ، ونظر الى عينيها القلقتين : « انى أعدك » وأقسم فى صدق « ان السنين القادمة ستكون ملكا لك ، فالاكتشافات نتركها للشباب ولن تعود لى . . . حين أعود الى الوطن هذه المرة سأبتلع المرسى وأبقى على الشاطىء الى الأبد » .

فابتسمت له اليزابيث وقالت : « كى أذكرك بوعدك سوف أضع مصباحا مضاء فى النافذة كل ليلة حتى تعود » .

« منارة ، هه ؟ » وضحك معها الرجل وقال : « لقد تبعت منارة واحدة طيلة حياتى » .

* * *

واختيرت لرحلة الشمال الغربى سفينتان وهما « ريزوليوشن » و « ديسكافرى » ... أما الأولى ، فكانت قد أثبتت صلابتها ، وأما

الثانية ، فقد بنيت فى نفس أحواض هويتبى، وعين لقيادة «ديسكافرى» الكابتن كلبرك وهو ضابط قدير من الملازمين الذين رافقوا كوك فى احدى رحلاته السابقة ٠

وطلب الكثير من الضباط والرجال الذين كانوا فى الرحلتين الأولى والثانية ، أن ينضموا الى الرحلة الثالثة ··· ها هو ذا دليل على عظمة قدر هذا القائد ، هذا اذا كانت هناك حاجة الى دليل ··· واهتم لورد ساندويتش بمراعاة تجهيز هاتين السفينتين على أكمل وجه ··· ولما كان جميع البحارة السابقين الذين طافوا حول العالم قد عادوا الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح فقد أعطيت التعليمات لكوك بأن يعود الى انجلترا عن طريق خطوط العرض الشمالية العليا بين أمريكا وآسيا ، ويدخل فى المحيط الأطلنطى من المحيط الباسيفيكى عن طريق الممر الشمالى الغربى الذى يعتقد الجميع أنه لابد موجود ٠

وفى ١٢ من يوليو ١٧٧٦ أبحرت السفينتان « ريزوليوشن » و « ديسكافرى » من ميناء بلايموث بين رفرفة الأعلام وهتافات الجموع الحاشدة ··· ووقف جيمس كوك على ظهر سفينته ، وفى موضع القيادة منها، وأخذ يشخص ببصره نحو شاطىء انجلترا اذ هو يخفت ويختفى ، فبرغم السفينة الجميلة التى يقودها والبحارة الممتازين والرحلة التى كان من شأنها أن تكلله بالمجد ، فقد كان الحزن يملأ قلبه ؛ فربما كان ذلك هو القدر الذى يحوم حول رأس الانسان ، والذى قد يقترب منه أحيانا حتى ليشعر بلمسات جناحه ؛ وطارت أفكار كوك الى زوجته وأولاده ، والى أبيه العجوز الذى ينام بجوار المدفأة فى جريت آيتون ··· فمتى يراهم ثانية ، ويسمع أصواتهم ؟

ولما وصلت السفينتان الى رأس الرجاء الصالح فى ديسمبر أعيد تموينهما استعدادا للرحلة الطويلة فى مياه المحيط الباسيفيكى العليا ... وفى هذه الأنحاء وجد كوك مجالات يعرفها ، ومر بجزر كان قد زارها من قبل .. ولم يتعجل لأنه اذا كان هناك حقا ممر شمالى غربى فان هذا الممر لن يزول بل سيظل هناك دائما .

وظل كوك عاما كاملا يجوب الجزر ويضيف الكثير الى المعلومات العلميـــة التى يعرفها العـــالم ويؤسس الصـــداقة بين الانجليز والبولينيين .

ولما وصلت السفينتان الى « الجزر الودودة » لقيتا ترحيبا ملكيا .

وكان كوك يترك فى كل جزيرة يصـــلها حيوانات ونباتات وحبوبا وما يمكن أن يستغنى عنه من المعادن .

وفى ليلة عيد الميلاد Christmas بينما كان الملاح العظيم يبحر شمالا اكتشف جزيرة مرجان ثبت أنها من أكبر الجزر ذات المستنقعات فى العالم ، وانتهز فرصة كسوف الشمس وبدأ يقيس خط الطول الذى تقع عليه وجعل السفن تراقب الظاهرة .

كانت الأرض جرداء بشكل غريب ، خالية من النخيل والماء العذب . ولكن مستنقعها الذى تبلغ مساحته أربعين ميلا كانت فيه جميع أشكال الحيوانات المائية سواء منها مايعوم وما يزحف ، وكانت الشواطىء مغطاة بملايين عديدة من طيور البحر التى لم تعتد منظر الانسان لدرجة أنها لم تبد أى دليل على الخوف ، وقد قتل البحارة عددا كبيرا من كلاب البحر السمينة ، واكتشفوا وجود كومة حجارة مثبتة عليها زجاجة بسلك ، ووجدت فى الزجاجة قطعة جلد من الذى يستعمل فى الكتابة عليه ، وكتب فى هذه القطعة ان سفينة فرنسية

قد رست فى هذا الميناء قبل ذلك بأربعة أعوام فكتب كوك على ظهر الجلد سجلا لزيارته هو : سفينتا « ريزوليوشين » و « ديسكافرى » التابعتان لجلالة ملك بريطانيا ٠ ٠ « ديسمبر ١٧٧٧ » ثم وضع الجلد ثانية فى الزجاجة وسدها برصاص ٠ ثم زاد من ارتفاع كومة الحجر كى تظهر من الخليج ، وأمر برفع علم بريطانيا ، وهكذا دخلت جزيرة « كريسماس » ـ عيد الميلاد ـ فى التاريخ ٠

وأبحرت السفينتان فى المحيط الباسيفيكى متجهتين شمالا ، وبدأ جيمس كوك يدخـــل مناطق يجهلها تماما ٠٠٠ فصادف فى طريقه ثمانى جزر جميلة من أخصب الجزر التى رآها فى حياته ٠ أطلق عليها توا اســـم « جزر ساندويتش » تكريما لكبير لوردات البحرية (وستعرف هذه الجزر فيما بعد باسم جزر هاواى) ولم يمكث كوك فى هذه الجزر الجديدة طويلا لأنه كان يعرف أنه لابد أن يذهب الى ساحل أمريكا الشمالية فى جو الصيف،لهذا حمل السفينة بالخشب والماء ورحل عنها ، ولكنــــه وعد نفسه بأن يزورها زيارة أطول فى طريق عودته لأنه كان مقتنعا بأن جزر ساندويتش هى أهم الجزر التى اكتشفها فى الباسيفيك ٠

وفى مارس ١٧٧٨ شاهدوا الساحل الشمالى الغربى ، ورست السفينتان فى خليج أســـماه كوك « خليج الملك جورج » ، وهـــو المعروف الآن باســـم « مضيق نوتكا » وعلا المد ووصل الى مسافة طويلة على الشاطىء فوصل البحر بالأرض ، وكان الجو باردا ونقيا للغاية ٠ وسمع صوت شلالات وصيحات طيور غريبة ورائحة نفاذة لدخان متجدد ، وخدع البحارة بهذه الأرض الوحشية التى تختلف كثيرا عن جزر بحار الجنوب المليئة بالأشـجار والنخيل ، واصطف الرجال والضباط خلف الحصون (وكان بين ضباط كوك شـــاب يدعى جورج فانكوفر سيلعب دورا هاما فى تاريخ هذا الساحل) ٠

وانطلقت أساطيل الزوارق مليئة بالهنود من الشاطىء ، وكان الذين يجدفون من المخلطين (البيض المتزوجين من الهنود) وهـذه علامة طيبة ٠٠٠ وصعد الرجال وحدهم الى ظهر السفن يحملون جلود الحيوانات للاتجار ، وصعدوا بخفة على السلاسل والحبال والسلالم متعلقين بأى شىء يمكن أن يمسكوه بأصابعهم وصعدوا كقطعان الجراد التى تهبط على واد خصيب ، وامتلأ الجو بضجيجهم العالى المصطنع ، رجال فى غاية القذارة بشعور ملبدة بالدهن ، وأجسامهم مخططة برموز مرسومة ، وتحركوا بقاماتهم الطويلة النحيلة فى عنجهية طائشة ، وحاموا حول السفينة كالقرود المتطفلة يتحسسون كل شىء يسترعى انتباههم ٠٠٠ ولم يطمئن رجال السفينة الى أن هؤلاء القوم كانوا غير مسلحين ٠

وقد قدم هؤلاء الهمج جلود الذئاب والدببة والسنانير وكلاب البحر للاتجار بها ، وكانوا لا يقبلون شيئا بدلا منها الا النحاس ٠ ويبدو أنهم كانوا قد ألفوا المعادن من التجار الذين توغلوا فى غاباتهم قبل ذلك ، وسرعان ماجردت السفينتان من النحاس حتى أزرار سترات الجنود ٠٠٠ وأثبت الهنود أنهم لصوص أبرع من أهالى بحار الجنوب أنفسهم ، وكانوا غاية فى دقة الملاحظة لا يفوتهم شىء مهما صغر ٠ أما ممتلكاتهم هم فقد كانوا يرعونها فى حرص ويأخذون ثمنا باهظا للماء والطعام ، وحتى العشب الذى يأخذه الانجليز لحيواناتهم ، وما أسرع ما كانوا يشعرون بما يسىء اليهم وينتقمون بسرعة مهما كانت الاساءة تافهة ، ولهذا اضطر رجال كوك أن يكونوا فى حذر مستمر ٠

وأخيرا اتجهت السفينتان نحو الشمال ، وانقضت الأشهر التالية فى مسح الساحل ، فرسمت الخرائط ، وقيست الأعماق ، وسميت الرءوس والخلجان ، وقد أخذ جيمس كوك يبحث عن الممر

الشمالى الغربى الرواغ ... وكان كلما رسا قابل قبائل جديدة من الهنود الهمج المخادعين الذين كانوا يتجرون بجلودهم وفرائهم مع الروس الذين فى الشمال .

ولما أبحرت ريزوليوشن و « ديسكافرى » أخيرا فى بوغاز بيرنج توغلتا فى مياه الخليج القطبى المتجمد ، وقبل أن تتوجها الى الجنوب ثانية كان كوك قد رسا على شواطىء آسيا وأمريكا المحيطة بالبوغاز ، ولما أشرف الصيف على الانتهاء فكر كوك فى أنه من المستحسن أن يغادر هذه المناطق المتجمدة بسرعة ، وقرر ، أن يقضى الشتاء فى جزر ساندويتش حيث يتمكن رجاله من أن يستعيدوا نشاطهم كما يتمكن هو من رسم الجزر رسما أدق ، وأكمل .

وفى طريقه جنوبا سلك طريقا صعبا يسمى « يونا لاسكا » وهناك بينما كان البحارة يقومون باصلاح السفينتين تسلم هو وكابتن كليرك هدية غريبة لكل منهما سلمها لهما أحد الأهالى ، وتبين أنها فطيرة مصنوعة من الجويدار (نبات كالشعير) ومملوءة بالسلامون ... وكان مع الهدية خطاب لم يستطع أحد أن يقرأه .

وابدى كلارك احدى ملاحظاته قائلا : « اننى أعرف أن الهنود ليست لهم لغة مكتوبة ...ما رأيك فى هذا ياسيدى ؟ » .

فخمن الآخر قائلا : « لابد أن تكون روسية ... يقال ان هؤلاء الأهالى يتجرون مع جميع من فى هذه المنطقة » .

وكلف كوك جنديا بحريا شابا يدعى جون لديارد بالبحث عن مرسل هذه الهدية الغامض (وسيكون لهذا الشاب فيما بعد مغامرات خاصة) . وعاد لديارد بعد عدة أيام يصحبه ثلاثة من الروس هم

أول أوربيين يراهم الانجليز منذ سنتين ، ورغم الصعوبات اللغوية فقد تبين أن هـؤلاء الغربيين يشتركون فى تجارة الفراء مع أهل الشمال وأطلع أحدهم ـ ويدعى اسميلوف ـ كوك على خريطة لجزر الكورايل ، وشبه جزيرة كامتشاتكا وكل ما اكتشفه الروسيون فى الشرق ... وأقيمت وليمة ضخمة ، وشرب الجميع نخب الصداقة .

ولما استأذن الزوار فى الرحيل أعطى كوك لأسميلوف رسالة للبحرية البريطانية وطوى معها خريطة لجميع الشواطىء الشمالية التى زارها وكان الروسى يأمل أن يتمكن من ارسال هذا الخطاب فى الربيع ، ووعد بذلك وبعد ذلك بسنة وصلت أنباء كوك القيمة الى لندن بعد أن تناقلتها الأيدى عبر سيبيريا .

* * *

وأبحرت السفينتان متجهتين نحو جزر ساندويتش تاركتين المناطق الشمالية خلفهما وبعد أيام (فى ٣٠ من نوفمبر ١٧٧٨) بدت فى الأفق أكبر جزر الهاواى ، بدت الجزيرة وكأنها حلم جميل فى أعين هؤلاء الرجال المتعطشين الى الشمس ... سفوح خضراء خصبة ، ترتفع طبقة فوق طبقة حتى تصل الى القمم التى تتلألأ بجليد دائم لا يذوب ... ان هاواى هى أجمل جزر الباسيفيك على الاطلاق .

وعاقت الرياح المضادة السفن من الوصول الى الشاطىء محذرة بسحبهم بعيدا ولما سارت السفينة فى اصرار حول رأس هاواى الجنوبية تتبعها زميلتها الأخرى ، خرجت الى الماء أساطيل الزوارق مليئة بهدايا الطعام من خنازير وفاكهة وقصب السكر ، وبدا الأهالى المبتسمون الذين تكسوهم الأزهار وكأنهم برمائيون يعومون مسافات طويلة دون أن يبدو عليهم أى تعب .

وكان يوجد عن بعد خليج واسع تحيط بأحد جانبيه صخور بركانية ، وأرسل وليم بلاى مساعد قائد الاقلاع الى الشاطىء كى يستطلع مكانا ترسو عنده السفينة (وبلاى هذا هو نفسه الذى سيشهر به كقائد لاقلاع الباونتى) وأحسن بلاىالقيام بعمله هذا ، ورست السفينتان أمام شاطىء به أتربة بركانية وفى الشاطىء كانت أشـــجار النخيل العاليـــة تظلل البيوت المغطاة بالقش من وهج الشمس ٠

وهنا حامت حول السفن مئات الزوارق مليئة بالرجال والنساء الفرحين وتسلق الأطفال ذوو البشرة البرنزية السلاسل والحبال ، وأخذوا يتشقلبون على ظهور المراكب وكأنهم كلاب صغيرة تلعب ٠٠ كم يختلف هؤلاء القوم عن الهنود الثابتين الواثقين بأنفسهم الذين هم فى الساحل الشمالى الغربى ! انك هنا لا تجد سوى الابتسامات والهدايا والأغانى والتحيات السعيدة ٠٠ ولم يحزن كثير من الانجليز لعدم تمكنهم من اكتشاف الممر الشمالى الغربى ! ولكنهم لاقوا صعوبة فى لفظ اسم هذا المكان الغريب : كيالاككوا ٠

واحتفل الملك (كالانيوبو أو) وكهنته بمقدمهم ، وكانت رؤوسهم متوجة بآلاف من الريش الصـــغير ،وزحفت العبـاءات الجمـــيلة المصنوعة من الريش الأحمر والأصفر من أكتافهم الى أرضية السفينة علامة على العظمة الملكية ٠٠٠ ان هؤلاء الهاوائيين أناس أنيقون طولهم يزيد عن المتوسط ويشبهون التاهيتيين فى هيئتهم ولغتهم ٠

وتقـــدم كوا الكاهن الأكبر ورئيس وزراء الملك كى يخاطب جيمس كوك لأنه يبدو أن هؤلاء القوم استطاعوا أن يميزوا القائد الأعلى للانجليز ، وألقى كوا خطبة طويلة بلغة الأهالى لم يستطع جيمس كوك أن يفهم منها كلمة واحـــدة ، ولسوء الحظ كان لهذه

الخطبة (لو استطاع كوك أن يحزر فحواها) علاقة كبيرة بالحوادث المؤسفة التى حدثت فيما بعد ٠

هذا ما قاله كوا : « يا أيها الرجل الأبيض لقد عاش فى هذه الجزيرة فى الأزمنة الغابرة اله يدعى « لونو » وفى نوبة من نوبات الغضب الشديد ذبح لونو زوجته وأطفاله ثم تملكه تأنيب الضمير لما قام به فهرب الى هاواى وصعد الى السماء ٠٠ ومن هناك نادى أتباعه قائلا : يا شعبى ، سأعود اليكم يوما ما فى زورق عظيم ذى أجنحة بيضاء ، وسيعود كل شىء الى ما كان عليه من قبل » ٠

وهنا توقف كوا الكاهن الأكبر لحظة قبل أن ينهى خطبته الترحيبية ٠٠٠ « يا أيها الرجل الأبيض ! ان زورقك قوى وله أجنحة كبيرة ، لقد عدت اليها ٠٠٠ فأنت « لونو ! » وهنا ركع الهاوائى العجوز وخبط رأسه فى أرض السفينة ثلاث مرات ، وقد فعل الملك (كالانيوبو أو) وأتباعه نفس الشىء للكابتن الانجليزى ، حتى الأطفال الذين كانوا يلعبون سكتوا وحنوا رؤوسهم السوداء مقلدين كبارهم ٠

واحتار كوك وضباطه ، لأنهم لم يفهموا من خطاب كوا سوى كلمة « لونو » ٠

ولما لم يفهم كابتن كليرك شيئا تمتم لرئيسه يسأله : « قل لى بحق السماء ماذا كان هذا الرجل العجوز يقول ؟ »

فأجابه الآخر فى حيرة وارتباك : « أنا تائه فى بحر من الحيرة ٠٠٠ وهم يتصرفون وكأننا آلهة » ٠

وأجاب كليرك فى جفاء : « هـــذا دور صعب حتى على الرجل الانجليزى ، أرجو ألا يخيب بحارتنا آمالهم ··· ترى ماذا يعنون بكلمة : « لونو ؟ » ·

ولم يستطع جيمس كوك أن يتذكر أنه سمع هـــذه الكلمة يتداولها البولينيون ·

وفى تلك اللحظة ألقى الكاهن الأكبر بحفاوة بأحـــد الثياب الجميلة المصنوعة من الريش ، وهذه علامة هاوائية تدل على منتهى الاحترام ، لأنه لا يرتدى عباءة الريش بين الهاوائيين الا أسماهم وأرفعهم شأنا ·

لقد اعتبر سكان جزر ساندويتش أن هذا الزورق الجبار ذا الأجنحة البيضاء وقائده ما هم الا تحقيق لأسطورة لونو ·

ان هؤلاء الأغراب ليسوا آدميين بل هم آلهة خالدون ، لا يمكن أن يموتوا ولا يمكن أن يخطئوا ·

وبعد أن انتهى الاحتفال رافق كوك الملك (كالانيوبو أو) الى الشاطىء فى وقار ، وهناك قاده الملك الى « الهيو » أو المكان المقدم وهو عبارة عن مذبح حجرى عال بنى خاصة لمراعاة جميع الطقوس الدينية ، وعلى أرضية الهيو تبادل الملك والكابتن البريطانى الأسماء ، وهو رمز للصداقة بين هؤلاء الجزريين ·

بينما ردد الكهنة أنشودة لا تنقطع ، وضع (كالانيوبو أو) تاجه الريش فوق رأس الرجل الانجليزى وقدم كوك قبعته المحلاة بالذهب بدلا من التاج وربط حزامه وسيفه حول وسط الملك ، وهكذا اكتمل الترحيب بلونو ··· وأصبح جيمس كوكِ من القديسين ، دون أن

يدرى ٠٠٠ وتدفقت الهدايا على السفينة : خنازير ، فواكه ، جوز هند ، موز وحزم من الأقمشة الوطنية مصنوعة من اللحاء الداخلى لشجر التوت وامتلأت السفن بهذه الأشياء التى أعطاها الوطنيون لهم دون مقابل ، ولم يستطع أحد أن يفهم معنى هذا الكرم الزائد الذى لم يحدث مثله فى أى جزء من أجزاء الباسيفيك ٠

ولكن جيمس كوك كان متلهفا على القيـــام بمسح شواطىء الجزيرة ٠٠ وأخيرا ضجر من حفاوة الأهالى ، لأنه لم يرد أن يعامل معاملة الآلهة ٠٠٠ وفى اليوم التالى عملت الاستعدادات لبناء مرصد للأجهزة البحرية على الشاطىء ٠٠٠ واختار كوا ، الكاهن الأكبر ، مكانا مناسبا وأسماه « الحرم » أو المكان المقدس ٠٠٠ واقتربت السفن من الشاطىء كى تحمى المعسكر بمدافعها لأنه رغم كل هذه الحفاوة كان كوك يعتبر أنه من الحمق أن يظلوا دون حراسة ٠

* * *

ومرت الأسابيع سراعا وانقضى عام ١٧٧٨ دون أن يحقق الملاح العظيم ما كان يبتغيه ٠

وفجأة وقع حادث سيىء ، اذ مات مساعد رجل المدفعية وحمل جسده الى الشاطىء لدفنه ، فصعق الهاوائيون ، كيف يمكن لهذا الشخص الخالد خادم الاله أن يموت ؟

ودوى الشـــك فى الهاوائيين دوى الرعد البعيـد ، وبدأوا يتساءلون : هذه السفينة الجبارة ذات الأجنحة البيضاء ـ أهى حقا الزورق المجنح الذى وعد لونو أن يعود به ؟ وذلك الرئيس الأبيض العظيم نفسه ـ أهو مزور ؟ وانتشر الشك بينهم انتشار النار فى الهشيم ، تزيده ريح الريبة ، وأخبر الملك (كالانيوبو أو) شعبه أنهم

خدعوا وأن الأغراب البيض قد قبلوا هداياهم عن غير حق ، وأنهم ليسوا آلهة ، بل هم آدميون يمكن أن يموتوا تماما كما مات ذلك الرجل الذى دفن لتوه فى أرضهم .

وهكذا زاد الشعور يوما بعد يوم ، ولم تعد الهدايا تتدفق على السفينة وكان البحارة وهم يملأون براميل الماء التى على الشاطىء يحييهم وابل من الحجارة وبدأت السرقات وكان أقدر بحاريهم وأمهرهم يأتون الى السفن ليــــلا ليسرقوا منها حتى مســـاميرها ولم تسفر احتجاجات كوك عن أية نتيجة ، لأنه بدا أن الملك نفسه كان يشجع اللصوص .

واعتبر كوك أن هذه هزيمة شخصية باعتباره قائدا للبعثة وكان قد أظهر منــذ بداية الرحــلة أن له دراية طبيعية بالشعوب البدائية ، فكانوا يأتون اليه كالأطفال الصغار واثقين به ثقة غريزية طبيعية وأعجب كوك بالهاوائيين أيما اعجاب وفضلهم على غيرهم ... أما الآن فقد انتابه شعور بالفشل ، فشل فى قدرته على فهم الناس وتفهم طبيعتهم ومرت به لحظة نسى فيها أنه لم يوجد على ظهر الأرض من جاب البحار أكثر مما جاب أو ترك سجلا أروع مما ترك هو ، حقا أنه لم يعثر على الممر الشمالى الغربى ، ولكنه اكتشف هــذه الجزر الخصبة أروع جزر الباسيفيك ، لولا أن ارتاب فيه السكان .. وفجأة فى ساعة الهزيمة هذه ، شعر بلهفة كبيرة ملحة الى رؤية تلال الوطن الخضراء ... واليزابيث .

وسمع صوت رئيس النوتية الاسكتلندى يجلجل بين السفينتين وهو يقول : « يالها من أرض جميلة ، هاواى هذه ! ولكنها ليست اسكتلندا ، ... انى أحب هاواى كثيرا ، ولكننى متشوق الى نباتات اسكتلندا وغزلانها » .

فأجابه صوت آخر مؤيدا : « آه انها ليست اسكتلندا » ٠

وتمتم رئيس النوتية قائلا : « انى أتساءل أحيانا هل ستتاح لى الفرصة أن أرى شجر القنـــدول ثانية وأسمع المزامير تسرى فى عروقى مع عزف «لوش لوموند» وأمتع نظرى بحقول البرسيم الجميلة فى شهر يونية » ٠

ووجدت هذه الأصوات لها صدى فى قلب جيمس كوك ٠

وفاضت به كأس المرارة حين أرسل الملك (كالانيوبو أو) رسولا الى السفينة كى يعرف موعد رحيل الأغراب ، لأن كميات الأكل الهائلة التى ترسل الى الرجال البيض قد تسبب مجاعة للهاوائيين ٠

واستقر رأى كوك بسرعة على أن الوقت قد حان للرحيل ومرت الكلمة فى السفينتين سريعا ، وفكوا المرصد ، ووقف الأهالى صامتين مكتئبين يراقبون الاســـتعداد للرحيل ، ولم يظهروا أســـفهم ولم يودعوهم ، وكأن الهاوائيين يراقبون وباء يأخذ مجراه ٠

وفى ٤ من فبراير كان كل شىء معدا ورفعت المراسى ونشرت الأشرع واصطف آلاف الأهالى على الشـــواطىء يراقبون « رحيل السفينتين » وشعر جميع من على ظهريهما بارتياح كبير حين تساقطت صخور اللافا التى فى كيالاككوا بسرعة ٠

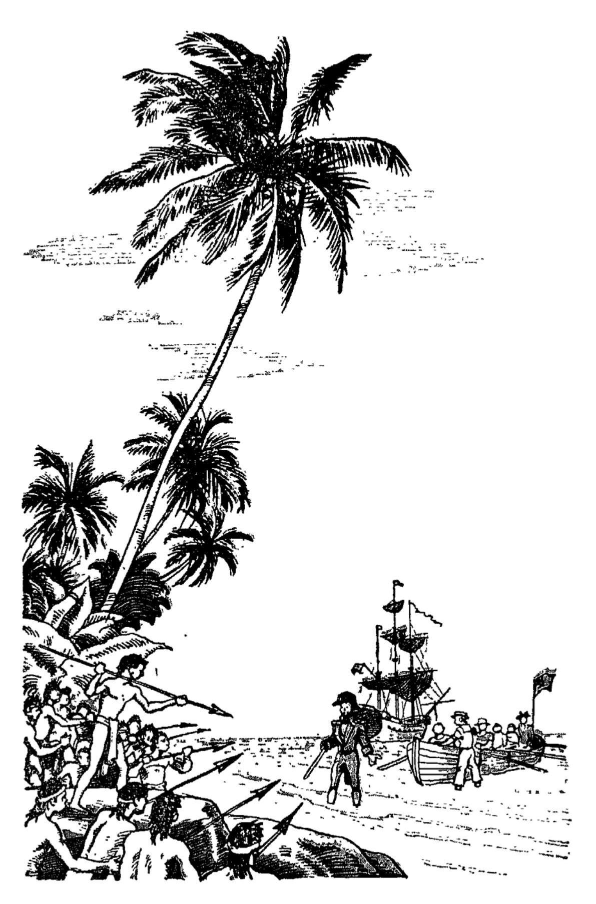
ثم حدث ما لم يكن فى الحســـبان ؛ فقد حاصرت السفينتين عاصفة ، استوائية ، عنيفة للغاية وعصفت بهما ، ولمـا انخلع شراع الريزوليوشن الأمامى ، لم يتمكنوا من مواصلة الرحلة قبل أن يصنعوا لها قلعا جديدا ، وكان أقرب مكان لهم هو كيالاككوا ٠

وقوبلت السفينتان العائدتان بتحية من العداء الظاهر ولما نزل أحد الضباط الى الشاطىء ليبحث عن خشب مناسب قابله الأهالى بموجة من الاساءات وهوجم رجاله بالصخور والرماح ، ولم يحافظ على نفسه حتى عاد الى السفينة بصعوبة ٠٠٠ ولكن ما خفى كان أعظم ، ففى تلك الليلة ظهرت أضواء خفيفة على الشاطىء وعند الفجر تبين أن قاطع السفينة « ديسكافرى » قد سرق بمهارة دون أن يشعر أحد من الحراس ٠

ها هى ذى الحرب يشنونها علانية ، ولكن صخور كيالاككوا السوداء الساكنة كانت تشرف على قرية بدت وكأنها مهجورة وساد السفينتين سكون تام شامل ، وتحرك البحارة فى هـدوء وصمت وكأنهم يخشون أن يخرقوا هذا السكون ، وكأن وقوع كرة قدم ، أو سماع صوت عال سيكون اعتداء مذهلا وزاد الشعور الممل بانتظار الانفجار شـيئا فشيئا حتى بدأت الطبول تدق بعيدا فى التـلال البركانية ٠٠٠ كان صوتها منخفضا فى بادىء الأمر ثم بدأ يعلو ٠٠٠ ويعلو ٠٠٠ حتى بدت الغابة تتكلم ، والأرض تجيب ، والسماء تحبس أنفاسها كى تسمع ٠

وقرر جيمس كوك أن يسـتعيد القاطع ، أحسـن زوارقه الصغيرة ، مهما كان الثمن ولما كان من الواجب اتخاذ تدابير حاسمة ، فقد صمم على أن ينزل الى الشاطىء ويواجه الملك بنفسه وأن يأخذ (كالانيوبو أو) رهينة حتى يستعيد القاطع ، لو اضطر الى ذلك ، وقبل أن يترك « الريزوليوشن » أصدر أوامره بوقف أى زورق يحاول أن يهرب من الخليج ٠

وخرج كوك يرافقه تسعة جنود من البحارة تحت قيادة الملازم فيليبس فى زورق مدرع وكان يحمل معه بندقية ذات ماسورتين ،



وطلب كوك من المواطن ان يلقي برمحه

وفكر كوك بأسى أن هذا منتهى هزيمته لأنه مضطر الى أن يواجه هؤلاء القوم الذين يحبهم وفى يده بندقية ٠

ولما اتجه القارب نحو الشاطىء شاهدوا آلاف الأهالى متجمعين ، مسلحين بالرماح « والباهوات » ، وهى هراوات حجرية ثقيلة ، وكان أغلب المحاربين يحتمون بدروع الصفصاف ٠٠٠ وسكتت هــذه المجموعة الضخمة الهائلة سكوتا رهيبا ، وتقدم الملك (كالانيوبو أو) الصفوف ووقف على الشاطىء متحديا ٠

ولما اقترب القارب المدرع من الشاطىء سمعت أصوات مجموعة من الطلقات ؛ اذ أطلقت الزوارق التى تحاصر الخليج النار على زوارق تحاول الفرار ٠٠٠ وسرت فى الجموع صيحات الغضب ، وفر الملك ، ولم يعرف ان كان قد فر هربا أو حرصا ٠

وقفز كوك الى الماء الضحل ، واستند البحارة الذين يحمونه من الخلف على المجاديف ، كما تعلق فيليبس بذراع الدفة ٠٠٠ وهنا تقدم أحد الهاوائيين ــ وكان أشجع من رفاقه ــ تقدم ليواجه الكابتن، وطلب كوك بهدوء من المواطن أن يلقى برمحه ولكن الرجل أطاح بذراعه الى الخلف معتزما أن يقتل ، فرفع كوك بندقيته وأطلق النار على المواطن ، ولكن الرصاصة لم تخترق الدرع الواقية ، ولما لم يصب الهاوائى صاح بتحد وسحب رمحه مرة ثانية ، ولكن طلقة كوك الثانية قتلته فى الحال ٠

وهنا تحطمت بؤرة الشر وانطلقت ، وتقدمت الجموع تصيح وتولول ، ورنت أصوات الرماح فى الهواء وأطلق الجنود البحارة دفعة من الطلقات فغاص المحاربون فى النهر وسحبوا أربعة بحارة من القارب المدرع بينما حاربهم الباقون بالمجاديف وأصيب فيليبس بضربة من « البــاهوا » بين كتفية ، ولكنــه أسقط مهاجمه بعقب

بندقيته ، وأطلق الجنود البحارة الآخرون دفعة ثانية مشتتة من الطلقات ولم تفعل أكثر مما تفعله مجموعة من الحصا .

وفى هذه الأثناء كان كوك قد وصل الى حافة الشاطىء وواجه وحده هذه الآلاف الثلاثة من الهمج الثائرين وكان لا يزال يحتفظ بشىء من مجده القديم ، شىء من حرمته لأن الهاوائيين ترددوا فى مهاجمة هذا الزعيم الذى واجههم بنظرته الجريئة ودوت دفعة أخرى من الطلقات فأصابت مجموعة من المحاربين واستدار كوك وصاح لفيليبس يأمره بالكف عن اطلاق النار .

وكان هذا العمل الكريم قاتلا ؛ اذ زحف أحد المحاربين من الخلف وألقى بنفسه على الكابتن وضربه ضربة قوية « بالباهوا » ، فترنح جيمس كوك ، وألقى بذراعيه الى أعلى وغاص بوجهه فى الماء ، فضربوه « بالباهوا » ضربة ثانية وثالثة ورابعة ...

فرقد كابتن كوك العظيم ــ الصبى الذى كان يحلم بالبحر ــ رقد حيث سقط فاقد الحس والأمواج ترتطم بجثته الهامدة .

* * *

وعلى بعد عشرة أميال من الشاطىء كانت توجد سفينتان تطفوان فوق الماء ونزلت عليهما بقضبانهما وقلاعهما الصلبة مظاهر الحزن والكآبة ونكست الرايات فى منتصف الصوارى ، وأخذت السفينتان تصعدان وتهبطان مع أمواج البحر الطويلة السقيمة ، ودقت الأجراس بينما تجمع الرجال أمام سور ريزوليوشن ووقفوا مطأطئين رؤوسهم ممسكين بقبعاتهم ، والسماء ملبدة بالغيوم تنخفض وكأنها تنحنى اجلالا لموت هذا الرجل العظيم ، وهطل المطر ، وبدت

صخور هاواى مظلمة تطل على البحر وخفق قميص كابتن كليرك لهبات الريح فى حين تلألأت حبات المطر على خده ٠

وانفتح باب سلم الهبوط ، واندلع منـــه أربعة من البحارة يحملون فيما بينهم حزمة ملفوفة بالخيش مربوطة بالقنب ومغطاة بعلم بريطانى باهت وتقدموا بخطى بطيئة نحو ســور السفينة ، وفتح كابتن كليرك الأنجيل وعلا صــوته الخشن فوق أزيز الريح وهـــو يرتل » :

« فى بيت الهى قصور عديدة ٠٠ لو لم يكن كذلك لأخبرتكم ٠٠٠ » ٠

وتقاربت أيدى البحارة أكثر وكأنها تبحث عن الدفء والثقة من زميلاتها ، وحاول بعض الرجال أن يخفوا عواطفهم ، ووقف البعض الآخر برءوسهم عالية ،والدموع تنزلق فى تجاعيد خدودهم برجولة وبدون خجل ، أما البحارة الأربعـــة فقد ثبتوا شحنة الخيش فوق السور وكأنما قلوبهم لا تطاوعهم لأداء عملهم هذا ؛ ونحوا العـــلم البريطانى ، وتحشرج صوت كابتن كليرك وكأنه يختنق ٠٠٠ وهو يقول « ولهذا فانا نرسل هذا الجسد الى الأعماق كى يتحلل ويتعفن وينتظر يوم البعث يوم أن يســـلم البحر موتاه ، وتعود الحيـــاة الثانية » ٠

وبح صوته وهو يصيح : « وداعا يا جيمس كوك وليباركك المولى ! »

* * *

ومر أكثر من سنة قبل أن يصل النبأ الى انجلترا ، فنزل الخبر منهم نزول الصاعقة للخسارة الفادحة التى حلت بالأمة ، وقيل ان

الملك لم يستطع أن يحبس دمعه وهو يأمر باعطاء معاش قدره مائتا جنيه لأسرة الملاح العظيم ، وأقر العالم أجمع أن جيمس كوك قد زود الملاحة بخرائط فى غاية الدقة ... أما ما قدمه للفلك والتاريخ الطبيعى فهو شىء لا يعد ولا يحصى ... وكان مثال القائد الحق يتحكم فى نفسه كما يتحكم فى الآخرين ...

حقا لقد اختفى رجل من أعاظم الرجال الانجليز ...

* * *

وظل المارة فى طريق « مايل اند » عدة سنين يرون فى نافذة البيت الحجرى الصغير ضوءا ثابتا يضىء من الغسق حتى بزوغ الفجر وكأنه فنار ينير الطريق لمن أراد أن يسير فى طريق المجد .

صدر من هذه السلسلة

١ ـ سيمون بوليفار ترجمة أحمد قاسم جودة

٢ ـ قاهرو الحمى الصفراء ترجمة الدكتور كمال سعيد

٣ ـ جنكيزخان ترجمة مترى أمين

٤ ـ ليوناردو دافينشى ترجمة سامى ناشد

٥ ـ كريستوفر كولمبس ترجمة رجائى نجيب مقار

٦ ـ الاسكندر الأكبر ترجمة فاروق القاضى

٧ ـ غاريبالدى ترجمة على أدهم

مؤسسة طباعة الالوان المتحدة
٨ شارع المرحومى – مصر القديمة القاهرة

هـذا الكتـاب

بقـلم

حسن جلال العروسى

يحكى هذا الكتاب قصة جيمس كوك الملاح الخالد الذى لم يكن قد رأى البحر ابان طفولته . ولكن حبه الفطرى له كان يجرى فى عروقه فصمم أن يعيش بين أمواجه يشاركه فى هدوئه وأهواله .

فهاهى ذى السفينة الانجليزية « انديفور » تقل بعثة الجمعية الملكية لمراقبة كسوف الشمس فى سنة ١٧٦٩ يرأسها رجل من أشهر الرجال الذين أبحروا تحت لواء العلم الانجليزى ، ذلكم هو جيمس كوك ، الذى علم نفسه بنفسه وهو ابن اثنتى عشرة سنة بأن عكف على دراسة أمور الملاحة من الخرائط والكتب وغير ذلك من المصادر حتى صار قطبا من أقطابها ، وعلما من أعلام رسم الخرائط ومراقبة الظواهر العلمية .

ان مؤلف هذا الكتاب يقص علينا أخبار رحلات جيمس كوك والاستكشافات العظيمة والأعمال المجيدة التى قام بها . وهى قصة تخلب الألباب وتفيض بمواقف الشجاعة والاقدام . ولا شك أن رحلات كوك كان لها الفضل أكبر الفضل فى تعريف الناس بالدائرة القطبية ، فهو أول من ارتادها ، كما كان لها الفضل فى الكشف عن الشعب المرجانية وعن جزر لا حصر لها فى جنوب المحيط الهادى





الثمن ٢٠ قرشا سنة ١٩٦٣